سعد زهران



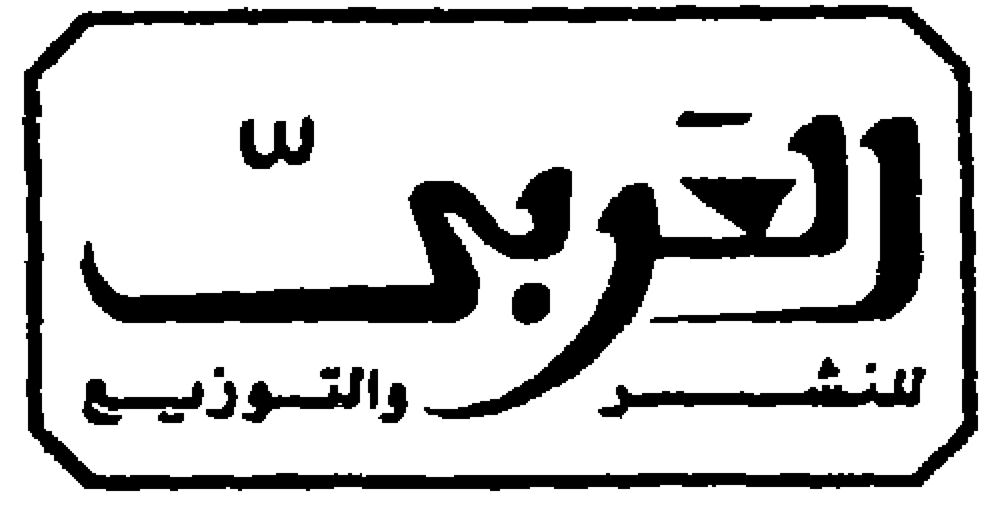
الأيديولوجية

ط الشُيوعية السوفيتية

الحرب الأيديولوجية
و
سقوط الشُيوعية السوفيتية

سعد زهران





١٩٩٢

٦٠ شارع القصر العيني أمام روزاليوسف
(١١٤٥١) القاهرة
ت : ٣٥٥٤٥٢٩ فاكس . ٣٥٤٧٥٦٦

مقـــــــدمـة

كانت دائماً هناك إيديولوجية ـ أى : مجموعة من قواعد التفكير العقلانى ، وأعتقاد فى نظام يسير الكون ويحكم مصائر البشر ، ومعايير للسلوك الإجتماعى والإلتزام الأخلاقى ... مُضَفَّرة معاً ، وملتحمة برباط وجدانى حضارى وتاريخى فى كل لا يتجزأ .. فى أيديولوجية (أو إيديولوجيات) تضم أفراد الجماعة البشرية منذ تمايزت عن القطيع الحيوانى .

هذه بديهية .. ولكن ليس فى زمان كزماننا ، أصبحت فيه غطرسة القوة تزين لأصحابها ـ وقد أصبحوا يملكون تكنولوجيا غسيل المخ ومحو الذاكرة والتلاعب بالعقول وشل الوجدان ـ أنهم يمكن أن يشككوا الناس حتى فى البديهيات . وهذا الكتاب محاولة للوقوف فى وجه غطرسة القوة وسعيها لتدمير أهم سمات الإنسان الإجتماعى المتحضر .. فى هذا الكتاب تذكير للناس . ببديهية أن الإيديولوجية ضرورة للمجتمع البشرى ، وإعادة التعريف بمنابعها وأصولها ، ومتابعة مركزة لتاريخها العالمى الحديث ، خاصة فى القرنين الأخيرين ، ودعودة لإحياء الآمال بأن الأزمة الإيديولوجية العالمية المعاصرة ليست هى نهاية الإيديولوجية ، ولكنها بداية لإحياء جديد .

* * *

والإيديولوجية ، شأن كل ظاهرة إجتماعية ، عملية متنوعة بتنوع الجماعات ، متغيرة بتطورّ التاريخ .

وفى قاموس الإيديولوجيات ، إن وجد ، آلاف منها .. ولكنها جميعاً يمكن أن تندرج تحت عنوانين عريضين : إيديولوجات المحافظين ، وإيديولوجيات التغييريين (أى دعاة التغيير).

ففى كل جماعة ، أو مجتمع ، فئة صاحبة إمتيازات ، مستفيدة من الوضعية الإجتماعية السائدة ، تحاول أن تحافظ على الأحوال كما هى ، أى تحافظ على ما بأيديها من سلطات وامتيازات مادية .. حتى لو كانت هذه الإمتيازات غير مبررة بوظيفة اجتماعية بناءة ، وحتى لو كانت هذه الإمتيازات وتلك السلطات وسيلة للفساد والإفساد والطغيان . وهذه الفئة هى صاحبة الإيديولوجيات المحافظة ، يدعمهم أصحاب المهن الإيديولوجية مِمّن يستسهلون، ويستسيغون، ويقتسمون .

وفى المقابل هناك فئات اجتماعية محرومة حتى من الضروريات ، يقف فى صفهم ـ على مر العصور ـ أصحاب الرسالات ، وصفوف بعد صفوف من المفكرين والمثقفين المستنيرين الخيرين ... وهؤلاء هم دعاة التغيير . هم دعاة الإصلاح ، والمنادون بأن تلتزم ممارسات الحكم والسياسة والتعامل بين البشر بالمثل الأخلاقية التى أجمعت عليها الديانات والمذاهب الإنسانية . فإن سدت فى وجوههم سبل الإصلاح ، وتجردت الممارسات السياسية السلطوية من المبادىء الأخلاقية ، يتحول بعضهم إلى الدعوة للثورة . وتاريخ الإيديولوجية هو تاريخ الصراع (أو هى الحرب) التى لم تتوقف أبدا بين الإيديولوجيات المحافظة من جانب ، وما يقابلها من أيديولوجيات إصلاحية أو ثورية من جانب آخر .

ويعنى هذا الكتاب بعرض الخطوط الأساسية للحرب الإيديولوجية فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ولعل أهم مايميزها هى أنها حرب دائرة على الصعيد

العالمى .

فى العالم الحديث ساد النمط الحضارى للغرب الصناعى ، وفيه تصدت المذاهب العقلانية الإنسانية (الليبرالية ثم الإشتراكية) لرفع رايات التغيير الإجتماعى السياسى، والحضارى الثقافى .

بدأت بشائر المذاهب العقلانية الإنسانية فى عصر النهضة الأوربية ، ووصلت إلى ذروة لها فى عصر التنوير . أخرجت الغرب من عصره الوسيط المظلم ، ومهدت لقيام الثورات البورجوازية الليبرالية الكبرى فى الغرب ، وأشهرها الثورة الإنجليزية (١٦٤٠) والأمريكية (١٧٧٦) والفرنسية (١٧٨٩) .

ولكن ، ما أن اكتملت الثورة الصناعية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، إلا وكانت الرأسمالية الغربية قد تمكنت من احتواء الليبرالية ، وحولتها إلى عقيدة محافظة. أفرغتها من الجوهر الإنسانى العقلانى الذى كان يميزها وقت أن كانت سلاحاً للقضاء على الإمتيازت الطبقية للإقطاع ، وجعلت منها أيديولوجية تبريرية لسلطة رأس المال ، وأبقت من شرائعها شكليات وطقوساً لنظم الحكم فى الدول الرأسمالية المتقدمة ، التى سارت بخطى سريعة فى طريق التوسع والعدوان الإستعمارى .

هكذا أنبتت ضرورات التغيير بذور الفكر الإشتراكى . وظهر ماركس عند منتصف القرن الماضى ليجعل من اشتراكيته «العلمية» وريثا لليبرالية فى حمل لواء التغيير . وظلت الماركسية فى صعود إلى أن وصلت الذروة فى أوائل القرن العشرين ، وإن كان الإنقسام قد بدأ يبد فى صفوفها ، بين الإصلاحيين والثوريين (الذين تزعمهم لنين) . وتوج صعود الإشتراكية الماركسية بقيام الثورة البلشفية فى روسيا (أكتوبر ١٩١٧) . وإذ كان لنين زعيما لدعاة

الثورة الإشتراكية ، وإذ أراد تمييز حزبه وأشياعه العالميين عن دعاة الإصلاح الإشتراكيين ، فقد أسمى حزبه « الحزب الشيوعى » ، وأصبحت « الشيوعية » هى اللافتة الإيديولوجية لدعاة الثورة على الرأسمالية والإمبريالية .

غير أن الشيوعيين السوفييت ، وقد أسكرتهم نشوة الإنتصار السهل للثوة من جانب ، كما بدأت تستعصى عليهم مشكلات الحكم والحرب الأهلية والحصار الرأسمالى العالمى الخانق من جانب آخر ، تجاهلوا فكرة ماركسية أصيلة ، هى أن الديمقراطية ، بأوسع معانيها وأكثرها تطوراً ، شرط أساسى ومكمل للإشتراكية ، واستسهلوا الإختيار المعادى للديمقراطية . زعموا أن قيام الثورة قد أنهى المناقشات وأغلق باب الإجتهاد الفكرى ، وأن من يريد إنهاء سلطة الرأسمالية فأمامه النمط البلشفى للثورة ، ومن يريد بناء الإشتراكية فأمامه النمط السوفييتى ودكتاتورية الحزب الشيوعى .. وسرعان ما أدى إهدار الديمقراطية إلى ظهور امتيازات طبقية جديدة . وسميت الطبقة التى استأثرت بالسلطة وخصّت نفسها بالجانب الأكبر من الفائض الإستهلاكى ـ سميت البيروقراطية . وبتسمية حديثة هى الستاتوقراطية Statocracy . أو هى تركيبة متداخلة مكونة من كبار رجال الدولة ، أى رجال الحزب والجهاز الحكومى الإدارى والقوات المسلحة والأمن .

وفعلت الستاتوقراطية السوفيتية بالشيوعية ماسبق أن فعلته الرأسمالية الغربية بالليبرالية . أفرغت الشيوعية من مضمونها العقلانى الإنسانى الذى كان يميزها فى فترة صعودها ، وحولتها إلى إيديولوجية تبريرية لدكتاتورية الطبقة الجديدة ؛ التى كانت بذورها عناصر انتهازية فرضت نفسها على الحركة الثورية ، غلبها الضعف الإنسانى والسلبيات الفكرية والحياتية للطبقة المتوسطة : التعطش للسلطة ، الهلع الإستهلاكى ، التشبه بالطبقات العليا المخلوعة ،

الإنسياق والإنزلاق فى منحدرات ومهاوى الفساد والإفساد .. ومع تحول الطبقة الجديدة إلى طبقة عليا محافظة ، تحولت معها الصيغ المبتسرة التى بقيت من الماركسية اللينينية إلى فكرٍ محافظ من نوع جديد . وأفرزت الوضعية الإجتماعية الطبقية الجديدة تناقضاتها التى وصلت بالمجتمع السوفيتى إلى أزماته التى لا حل لها طالما بقيت « المحافظية » السوفيتية الحاكمة فى مواقع السلطة . وفى الإطار المحافظ ، حدث الإنقسام الكبير فى قمة السلطة ، إلى محافظين متحجرين جامدين ومحافظين إصلاحيين . وكان انقلاب أغسطس الفاشل إعلانا عن السقوط المدوى للمحافظين الجامدين (وهم الذين ـ لسخرية التاريخ ـ ظلوا متمسكين بلافتة الشيوعية السوفيتية) ، وعجز المحافظين الإصلاحيين عن أن يكونوا فى مستوى القدرة على الخروج من الأزمة .. بينما اختار بعضهم ـ تحت زعامة يلتسين ـ أن يرفع رايات ثورية زائفة تدعو صراحة إلى عودة الرأسمالية بدعم وتدخل مباشرين من الرأسمالية العالمية ..

أما قوى التغيير الثورى التى يمكن أن تشق طريقاً نحو اشتراكية ديموقراطية حقيقية ، وتستعيد للعقلانية والقيم الإنسانية مكانتها فى المجتمع السوفيتى ، فإنها ما تزال فى الظل ، فى طور التكوين .. بل إنها تخطو خطوات حثيثة فى طريق النضج . وجدير بالذكر أن هذه القوى ماتزال إصلاحية ، أى ماتزال مقتنعة بأن التغيير الثورى يمكن أن يتم بالوسائل السلمية ، فى ظل الأوضاع الديمقراطية التى ترتبت على سقوط دكتاتورية الحزب الواحد .

* * *

تعالج فصول هذا الكتاب موضوعات متمايزة ، كل منها متكامل بذاته، أى يمكن أن يقرأ مستقلا فيفيد ، أو يقرأ فى السياق العام للكتاب ليتكامل النسق الفكرى للعمل فى جملته .. وهو نسق يتسق مع اجتهاداتنا السابقة*) .

(*) نخص بالذكر منها :

*« فى أصول السياسة المصرية » ـ دار المستقبل العربىّ ـ القاهرة ١٩٨٥

* « التقدمية كمهنة » ـ بحث لم ينشر كتب عام ٩٨٠ ـ ١٩٨١ .

* « شباب ١٩٦٨ يهز العالم » ـ مجلة الطليعة (التى كانت تصدرها مؤسسة الأهرام القاهرية .) عدد أغسطس ١٩٦٨ .

بدأنا برفض مايدعيه الإيديولوجيون الأمريكان ، ومن لف لفهم حتى من القيادات السوفيتية التى أفلست ، أن انتهاء الحرب الباردة يعنى إنتهاء الأيديولوجية ، وذلك بتقديم تعريفنا الأولى للأيديولوجية ، وكذا تعريفنا بمنابعها الأربعة الأصيلة : الدين والقومية ، والليبرالية والإشتراكية .. وأكدنا على بديهية أن الأيديولوجية ضرورية للإنسان الإجتماعى ، تماماً كما أن الأوكسوجين ضرورى للإنسان ككائن حى .

ثم انتقلنا إلى تحليل أزمة الإيديولوجية السوفيتية ، باعتبارها المفجر الأساسى للأزمة الإيديولوجية الشاملة التى يعانى منها عالم اليوم . وقد كتب هذا الفصل قبل حوالى أربعة شهور من انقلاب أغسطس ١٩٩١. فلما حدث الإنقلاب ، وفشل ، كان ذلك حافزاً لأن نعود إلى استكمال أفكارنا حول هذا الموضوع . ولما كانت أخر صيحة للأيديولوجيين الأمريكيين هو إنكار الإيديولوجية أصلاً ، وجزء من أهداف هذا الإنكار هو إخفاء الهوية الأيديولوجية المحافظة (أو بالأحرى الرجعية ؟) للفئة الحاكمة فى الولايات المتحدة وفى البلاد الصناعية الغنية عامة ـ فقد عنينا ، فى الفصل الثالث ، بالكشف عن جوهر الأيديولوجية الأمريكية السائدة ، وملامحها الأساسية ، وتابعناها من الأصول .. وذهبنا إلى أنها هى الصيغة الأحدث ، والأكثر تداولاً فى أيامنا هذه ، لما أسميناه « المحافظية Conservatism الغربية الحديثة».

وفى الفصول الثلاثة التالية عرضنا موجزاً لتاريخ الحرب الإيديولوجية الدائمة التى تشنها المحافظية الغربية على المذاهب والحركات السياسية الإجتماعية ، العقلانية والإنسانية ، منذ الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، حتى الثورة الروسية والثورة الصينية وثورات التحرر الوطنى فى القرن العشرين . ولما كان الفكر والموقف المحافظ لايعدو أن يكون من قبيل رد الفعل،

بينما الفعل الحقيقى (بمعنى الحركة الإرادية للجماعة البشرية فى سبيل الأفضل) هى النقيض ، لذلك عنينا بعرض مقابل لأيديولوجيات التغيير والتقدم ، وخاصة منابعها الليبرالية والإشتراكية.. ثم دفعتنا مفاجأة الإنقلاب الفاشل فى الإتحاد السوفيتى إلى كتابة الفصلين الآخيرين ، استكمالاً للحديث عن أزمة الأيديولوجية السوفيتية ، من مدخل «الصراع الإجتماعى» ، الذى نعتبر فهمه مفتاحاً أساسياً لتصور مستقبل الإيديولوجية فى الإتحاد السوفيتى، كما فى العالم بأسره .

هذا ، وقد كتبت فصول هذا الكتاب بين ديسمبر ١٩٩٠ وأكتوبر ١٩٩١، وهى فترة مروعة شهدت تدمير العراق والكويت فى تلك الحرب المشئومة ، وإتمام إخضاع منطقتنا للهيمنة الأمريكية ، والإمعان فى إمتهان أهلها .. كما شهدت إنهيار الدولة والحزب فى الإتحاد السوفيتى، وإنفراد أمريكا بصفة القوة العظمى الوحيدة فى عالم لا ينتظر ـ بسبب هذا الإنفراد الثقيل ـ إلا مزيداً من الكوارث والأهوال . لذلك، كان من الطبيعى أن تتحرك أفكار الكاتب مع الأحداث لتزداد وضوحاً ، ويتأثر الأسلوب فتتصاعد حدته ومرارته (ربما على نحو مبالغ فيه أحياناً) ، وإن ظل الإتجاه الفكرى العام متسقاً والمنهج العقلانى متماسكاً . (أو هذا ما أعتقده)

* * *

ولا يفوتنى أن أؤكد أن عدداً لا يحصى من الناس العاديين ، فضلاً عن مئات المناضلين السياسيين والمثقفين المهمومين المجتهدين المتجردين عن الغرض ، لهم أفضالهم على الكاتب . استفاد منهم فى تكوين أفكاره ورفع معنوياته .. شدوا أزره وشجعوه لكى يظل مجتهداً ، ومتابعاً للأحداث والأفكار ، ومساهماً فى التجديد والتطوير ، فى عالم يتغير فيه كل شىء بمعدلات فائقة .

وفيما يتعلق بهذا الكتاب ، أخص بالشكر الأستاذ الصديق مصطفى الحسيني ، وأذكر تشجيعه ومناقشاته التى كان لها ، على الرغم من إختلاف وجهات النظر ، فضل خاص فى أن يرى هذا الجهد النور .

سعد زهران

نوفمبـــر ١٩٩١

****

******

***

*

حول ما يقال عن إنتهاء الإيديولوجيات بعد إنتهاء الحرب الباردة

من المتفق عليه بين الجميع أن البشرية تلج مرحلة تاريخية جديدة بوصول العلاقات بين الشرق والغرب ، أو إن شئنا الدقة قلنا بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتى ، إلى ما وصلت إليه من وفاق أو اتفاق .. أو سمه ماشئت .

ولأن هذه المرحلة ماتزال فى بدايتها ، فإن تشخيص طبيعتها وتوصيف ملامحها والتنبؤ بإتجاهات صراعاتها ماتزال جميعاً ، وستظل لفترة غير قليلة ، موضوع إجتهاد علم الكلام السياسى . غير أن هذا من أشد العلوم افتقاراً إلى المنهج العلمى وأكثرها تأثرولأن هذه المرحلة ماتزال فى بدايتها ، فإن تشخيص طبيعتها وتوصيف ملاحها والتنبؤ بإتجاهات صراعاتها ماتزال جميعاً ، وستظل لفترة غير قليلة ، موضوع إجتهاد علم الكلام السياسى . غير أن هذا من أشد العلوم افتقاراً إلى المنهج العلمى وأكثرها تأثراً بالنوازع والأغراض والمصالح الذاتية للمشتغلين به خاصة وهم يفتقرون إلى الإستقلالية ، فمصائرهم وأرزاقهم (وأحياناً رفاهيتهم) ماتزال بأيدى الممارسين العمليين ذوى السلطة والنفوذ من رجال الحكم والحرب ، والمال والأعمال ، والقابضين على نواصى العقول والوجدان من خلال شبكات الإعلام العالمية ، بما لها من حضور دائم وتأثير كاسح على كل الناس فى كل البلاد ومن كل الطبقات والأجناس .

والمشتغلون بعلم الكلام (أو بالفلسفة) السياسية عادة مايكونون أساتذة أكاديميين أو خبراء محترفين أو صحفيين نشيطين أو كتبة جاهزين .. والجميع لابد أن يكونوا منظرين مجتهدين . فالإجتهاد فى هذا المجال هو علة

الوجود .

والإجتهاد فى الظروف الراهنة لا يعدو أن يكون استكشافاً « بالتجزئة » لما تكشف عنه الأحداث والتطورات المتلاحقة من ملامح المرحلة الجديدة التى ماتزال فى أطوار تكوينها الأولى . والزمن ، مع مواصلة الإجتهاد ، كفيلان بتجميع الملامح واستكمال الصورة. وغنى عن الذكر أن اختلاف النوازع والأغراض والمصالح لابد أن يوصل ، فى النهاية ، إلى أكثر من صورة (أو تصور) لطبيعة المرحلة الجديدة واتجاهات صراعاتها الأساسية . ولكن ، من الملفت للنظر حقاً أن غالبية المشتغلين بالفكر السياسى فى أيامنا هذه يتعجلون الإعلان عما يصفونه بأنه أهم ملمح من ملامح المرحلة الجديدة ، ألا وهو «غياب الإيديولوجيات » فى العلاقات الدولية فى هذه المرحلة . ويهلل الكثيرون، وكأنهم يزفون للناس بُشرى : لقد انتهى عصر الإيديولوجيات . ويضيفون كلاماً، معناه : .. ويبدأ عصر المصالح .. فالمصالح وحدها هى التى أصبحت تحكم العلاقات بين الدول والجماعات .

والحق أنه ليس أخطر على عقول الأجيال الجديدة ومعنوياتها من هذه الفكرة التى يروجها غالبية السياسيين والإعلاميين ممن لا يأخذون من أمور الفكر إلا قشوراً . بل إن عدداً هائلاً من المشتغلين بشئون الفكر يرددونها ويوظّفون مهاراتهم « لتعميقها » . وعذر هؤلاء وأولئك أنهم تعودوا أن ينقلوا عن مشاهير المشتغلين بالعلوم السياسية وخبرائها فى البلاد المتقدمة فى أوروبا وأمريكا ، الذين تتضافر جهود دور النشر وشبكات الإعلام العالمية لفرض نفوذهم الفكرى على الجميع . وبفعل التكرار اللانهائى ، وسلطة مراكز البحث وجامعات الصفوة ، وفى دوامة الندوات وسحر اللقاءات ودوار السفريات والدعوات التى يُنْفَقُ عليها ببذخ المليارديرات ... بفعل كل هذا يجعلون من

أقوالهم وكتاباتهم ناموساً للفكر ومرشداً للعمل السياسى ... ليس فى بلادهم فحسب ، وإنما على إمتداد الكوكب ، بما فى ذلك بلاد العالم الثالث ـ طبعاً .

فما هى الأغلاط والمغالطات التى تقوم عليها هذه الفكرة ؟ .

بديهـــــية أوليــــــة

تنكر هذه الفكرة بديهية أولية كاد الضجيج الإعلامى أن يحجبها عن الأذهان ، وهى أنه لا يجوز الفصل بين الإيديولوجية والمصالح . فأية إيديولوجية لا تعدو ـ فى التحليل الأخير ـ أن تكون تعبيراً عن مصالح . والعلاقات بين الأفراد والجماعات البشرية ، بما فى ذلك العلاقات بين الدول ، تحكمها مصالح تعبر عنها إيديولوجيات . ومن ثم لا يصح القول بإنتهاء عصر الإيديولوجيات وولوج عصر المصالح .

ولأن المجتمع البشرى فيه مصالح مختلفة ، تختلف بإختلاف الوضع الإجتماعى والمستوى الثقافى والإنتماء العقائدى .. وغير ذلك من العوامل الأقل أهمية ، فإن المجتمع يتسع لأكثر من إيديولوجية . وطالما كان المجتمع يتمتع بقدر من الإستقرار والتوازن ، فإنه يمكن دائما اكتشاف إيديولوجية سائدة، هى الإيديولوجية الأكثر تعبيراً عن المصالح الإجتماعية الإقتصادية السائدة ، صاحبة النفوذ السلطوى الحاكم ، وهى فى نفس الوقت الأيديولوجية الأكثر قدرة على النفاذ إلى سائر الطبقات الإجتماعية ، والتسلل إلى وجدانها ، وحملها على القبول بالأوضاع القائمة بإعتبارها أحسن الممكنات ، أو الرضوخ لواقع الحال بإعتباره أقل الممكنات سوءاً .

وكذلك الحال فى المجتمع الدولى ، حيث الأيديولوجية السائدة فى أى تجمع إقليمى أو تحالف دولى هى أيدولوجية الدولة القائدة .

ماهـــى الإيديولوجيـــة ؟

ولفهم ما آلت إليه الحالة الإيديولوجية للعالم المعاصر من تشويش ، وما تتعرض له من سوء فهم يصل إلى حد إعلان انتهائها أو إنكار وجودها أصلاً ، ولابد أن نبدأ من البداية، من التعريفات الأولية .

الأيديولوجية ، فى تعريف مبسط وموجز ، تركيبة عقلية وجدانية ، تخاطب الذهن كما تحرك العاطفة ، تساعد الإنسان على تفهم معنى الحياة وتذوق طيباتها ، كما تعينه على تقبل ملغزاتها وتحمل متاعبها والصبر على نوائبها . ومن ثم فالإيديولوجية ضرورة للإنسان وجزء من الحالة الإنسانية . وكما يستحيل أن يعيش الإنسان المادى بغير هواء ، يستحيل أن يعيش الأنسان الإجتماعى بغير أيديولوجية . وبقدر ما ترتفع درجة الإتساق الإيديولوجى ، ويتعاظم الإنسجام (أو التوافق) الإيديولوجى فى المجتمع ، تكون العلاقات بين الأفراد أكثر نعومة ويسراً ، ويكون النسيج الإجتماعى أكثر تماسكا ، وتتعاظم قدرة الجماعة على الإستمرار والنهوض . وكل هذا يتناسب تناسباً طردياً مع قدرة الطبقة (أو الطبقات) السائدة على توفير الإحتياجات المادية الأساسية لمجموع السكان ، كما يتناسب مع أهليتها الفكرية وصحتها النفسية ولياقتها المعنوية .

يسرى هذا المفهوم على المجتمع الإنسانى فى مختلف مراحل تطوره التاريخى ، منذ المجتمعات البدائية والقبلية الأولى حتى مجتمعات العصر الحديث ، كما يسرى على الجماعة الإنسانية المعاصرة بمختلف دوائرها .. من الدوائر المحلية والوطنية ، إلى الدوائر القومية الحضارية الأوسع ، ثم إلى الدوائر السياسية الجغرافية ذات الأبعاد العالمية (الشرق والغرب ـ الجنوب ـ والشمال ـ ..) . ووصولاً إلى مشارف المستقبل ، نستطيع أن نقول أن إضطراب أحوال

سكان كوب الأرض فى هذا الزمان يرجع ، أولاً وقبل كل شىء ، إلى غياب تركيبة إيديولوجية توحيدية، تساعد البشرية بإختلاف مكوناتها القومية وإنتماءاتها العقائدية على التعايش فى مجتمع عالمى متوازن ومسالم ، بعد أن توفرت جميع المقومات المادية لتوحيده ورخائه ـ خاصة وأن البديل الوحيد هو أن تظل البشرية مندفعة فى طريق الدمار .. وهو دمار شامل يصل إلى تهديد بقاء النوع الإنسانى نفسه .

المنابــع الاربعــة للإيديولوجـيـات المعاصــرة

عرفت الجماعات البشرية إيديولوجيات كثيرة يخطئها الحصر ، اختلفت وتنوعت بإختلاف البيئة الطبيعية والظروف الإجتماعية التاريخية التى أنبتتها . والأيديولوجية ، شأنها شأن سائر ظواهر الحياة وتجلياتها ، صيرورة دائمة التغير ، تنمو وتتطور وتزدهر، ثم يسرى عليها ما يسرى على سائر الظواهر من ضمور وإضمحلال ، وذلك عندما تصبح قاصرة عن مواكبة التغييرات التى تطرأ على المقومات الأخرى لحياة الجماعة بعجزها عن مساعدة الناس على مواجهة تحديات التطور والتغيير .

وحين تضمحل الإيديولوجيات ثم تندثر فإنها لا تترك فراغاً إيديولوجياً، وإنما تنبت على أنقاضها إيديولوجيات جديدة أكثر قدرة على مواجهة التحديات ومسايرة ضرورات التطور والتغير . ومن ثم ، فإن بعض الإيديولوجيات أطول عمراً من البعض الآخر ، حيث هى أكثر قدرة على التجدد والتواؤم . غير أن طول عمر بعض الإيديولوجيات لم يكن تعبيرا عن خصوبتها وقدرتها على التطور والتواؤم بقدر ما كان تعبيراً عن جمود مزمن أصاب المقومات الأخرى لحياة الجماعة.

والملاحظ أن التركيبات الإيديولوجية الجديدة التى تنبت على أنقاض ما

سبقها لابد وأن تحتوى على عناصر تظل باقية من الأيديولوجيات القديمة ، بقايا معدلة أو مخففة أو مموهة تندمج فى التركيبات الإيديولوجية الجديدة . ومع مرور الوقت ينسى الناس ماحدث ، ويُخَيّل للعامة أن لا علاقة البتة بين القديم والجديد . ومرة أخرى ، ليست الإيديولوجية فى هذا خروجاً على قاعدة عامة تسرى على ظواهر الوجود كلها ، فمن المعروف مثلاً ، أن الجسم الإنسانى يحتوى على عناصر متبقية من خياشيم الأسماك وغيرها من أعضاء ضامرة كانت موجودة فى كائنات سبقتنا على سلم تطور المملكة الحيوانية . والتركيب التشريحى للإنسان سجل حى لهذا التطور .

هذا ، وللإيديولوجيات المعاصرة منابع أساسية نلخصها فى أربعة : إثنان قديمان عرفتهما الحضارات الزراعية الأولى ، هما الدين والقومية ، وإثنان استحدثتهما أوروبا بعد نهضتها التى بدأت منذ أقل من سبعة قرون ، هما الليبرالية والإشتراكية .

الديــــن والقوميــــة

والدين هو أقدم المنابع العقائدية التى عرفها الإنسان ، وأبقهاها على الأيام . وقد عرفت البشرية، بعد أن تمايزت الجماعة الإنسانية عن القطيع الحيوانى منذ العصر الحجرى حتى اليوم ، عرفت ديانات تعد بالآلاف .

غير أن الأديان ، على إختلافها ، تتفق فى أمر أساسى ، هو الإيمان بأن قدرات الإنسان محدودة ، وأن مصائره وحظوظه تملكها قوة إليهية وإرادة ربانية تعلو على إرادة البشر . وعلى مرّ العصور ، يسعى الناس إلى التَقَرب من هذه القدرة العليا بنصوص يتلونها وشعائر يؤدونها ونواميس أخلاقية يلتزمون بها ، تختلف النصوص والشعائر بإختلاف الديانات ، ولكن النواميس الأخلاقية (للديانات الكبرى خاصة) لا تختلف إلا قليلاً .

فى البدء ، عندما كانت حدود الجماعة البشرية هى قبائل الصيد وجمع الثمار ، ثم قبائل الرعى البدائى ، كانت الديانات الأولى من النوع الذى اصطلح المتخصصون فى علم الأنثربولوجى على تسميتها « الديانات الطوطمية » ، النابعة من رهبة الإنسان ـ فى طفولته الحضارية ، من قوى الطبيعة التى لا سيطرة له عليها ، ولا يرقى ذهنه إلى فهمها ، بينما لا غنى له عن كثير منها فكان يعبدها ويصطنع آلهة من رموزها ، ويقيم الطقوس ويقدم الأضحية لمحاولة استرضائها والتماس معونتها ، أو اتقاء شر غضبها . ومازالت أنماط من هذه الديانات والمعتقدات موجودة حتى يومنا هذا ، ومنتشرة بين جماعات بشرية كثيرة فى أرجاء متفرقة من أفريقيا الإستوائية واستراليا وحوض الأمازون وبعض الجزر الأندونيسية .. إلخ .

فلما ارتقت الجماعة البشرية فى سلم التطور ، وعرف الإنسان الزراعة ، وسكن بيوتاً ثابتة فى محلات مستقرة ، ثم ظهرت القرى والمدن التى تضم كل منها عدداً من القبائل ، توحدت المعبودات القبلية فى معبودات قروية أو مدينية.. احتوت كل منها فى دائرة نفوذها عدداً من الآلهة أو المعبودات الطوطمية السابقة .

... وفى وديان الأنهار الكبيرة فى الحزام الكوكبى الدافىء ، حيث توفرت ظروف طبيعية جغرافية مواتية ، طفرت الحضارة الزراعية طفرتها الكبرى، حيث توحدت المحلات والقوى والمدن فى وحدات جغرافية سياسية كبيرة ، وتلك هى ممالك العالم القديم ، وفيها توحدت المعبودات القروية والمدينية والمحلية الأخرى .. لتتشكل الديانات والمعتقدات شبه الدينية الأساسية للعالم القديم : الديانة المصرية القديمة ، وديانات ما بين النهرين ، والبوذية والهندوكية والكونفوشية والتاوية ... إلخ .

وأقصى توسع وصلت إليه الوحدات السياسية الجغرافية فى عصر سيادة الحضارة الزراعية، كان هو الإمبراطوريات الإقليمية ، (تمييزاً لها عن «الإمبراطوريات العالمية» التى عرفها التاريخ الحديث ، بعد سيادة الحضارة الصناعية ، منذ القرن الماضى) . ذلك أنه طالما ظلت وسائل المواصلات والإتصال على ما كانت عليه قبل عصر الصناعة ، فإن الإمبراطوريات الزراعية ظلت محصورة فى حدود قارية أو شبه قارية (الصين ـ الهند ـ شبه القارة الأوسطية المتوسطية ...) ، امبراطوريات يفصل بعضها عن البعض الآخر موانع جغرافية قاهرة تستعصى على وسائل المواصلات والإتصال المتاحة : صحارى كبرى ، سلاسل جبال شاهقة ، بحار أو محيطات مهولة .. وطبيعى أن كان لكل من هذه الإمبراطوريات عقيدتها الدينية المهيمنة التى توحدها ، وإن ظلت سمات من الديانات والمعتقدات السابقة (المحلية أو القبلية) مترسبة فى الوجدات والمزاج الجمعى للتكوينات السكانية المختلفة . ومن ثم ، اكتسبت الديانات الرسمية ، فى الأرجاء المختلفة للإمبراطوريات ، سمات خاصة ومتنوعة بتنوع الأقاليم والممالك التى تضمها . وطبيعى أيضاً أن تتوافق هذه الخصوصيات مع قوة الموروث من نفوذ الديانات والمعتقدات المحلية السابقة ، وعراقتها.

وفى هذه المنطقة من العالم ، فى شبه قارتنا الأوسطية المتوسطية ، Miditerranian - Middle-East Subcontinent تكونت فى وادى النيل الأردنى ومابين النهرين أولى الممالك الكبيرة فى العالم القديم ، واعتنق الناس أولى العقائد والديانات التاريخية الكبيرة ، التى كانت هى الديانات الرسمية للأسرات الحاكمة فى مصر الفرعونية وفى ممالك مابين النهرين . وفى منطقتنا أيضاً تكونت أولى إمبراطوريات العالم القديم ، وهى الإمبراطورية

المصرية التى أسسها ملوك الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة . وكانت عبادة آمون هى الديانة الرسمية للإمبراطورية ، إلى أن جاءت دعوة الفرعون الفيلسوف إخناتون ، لتكون أول ديانة توحيدية ذات آفاق عالمية ، والتى أراد لها إخناتون أن تكون الديانة التى توحد الأمم والشعوب عن طريق عبادة الآله آتون ومحبته، عوضاً عن إخضاعها بالقهر والقمع العسكرى . ولكن الردة التى دبرها كهنة آمون بعد موت الفرعون الناسك قضت على الدعوة الإخناتونية ، وأعادت عبادة آمون كالديانة الرسمية لأكثر من خمسة عشر قرن أخرى ... وإن ظلت الدعوة التوحيدية كامنة فى الوجدان الجمعى للمصريين ولأمم الإمبراطورية وشعوبها .

هذا ، وكانت عقيدة الثالوث « إيزيس ـ أوزوريس ـ حوريس » تحتل مكان الصدارة فى العبادات والشعائر الشعبية للمصريين القدماء ، وتأثر غالبية من دخل فى دائرة نفوذهم الحضارى من الأمم والشعوب المجاورة ، التى كانت قد شرعت تتكون وتتطلع للقيام بدور متعاظم فى المسيرة التاريخية للمنطقة . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن عقيدة الثالوث الأوزورسى ظلت عالقة بالوجدان الجمعى للمنطقة ـ هى أيضا . !!

.... وانتهى العصر الإمبراطورى .. وضعفت الدولة المصرية الفرعونية ، ودب فيها وهن الأفول ، وجارت عليها موجات بعد أخرى من الليبيين غرباً والكوشيين جنوباً ، وأخلاط من الآسيويين و « شعوب البحر » شرقاً وشمالاً ... وظهرت عليها القوة العسكرية لجيرانها الذين كان أغلبهم رعاة أو أشباه رعاة ، يخطون خطوات أولية فى ركب الحضارة الزراعية ، ثم تحولت طلائعهم إلى تجار محاربين مقتحمين .

دار تاريخ المنطقة دورته الكبرى .. حين تمكن التجار المحاربون المقتحمون من تكوين إمبراطورياتهم الإقليمية . وكان أولهم وأشهرهم الإسكندر المقدونى

ذا القرنين . وتداولت هذه الإمبراطوريات الهيمنة على المنطقة بما فيها من ممالك وحضارات زراعية عريقة ... لأكثر من عشرين قرناً (أى إلى مشارف مايسمى بالتاريخ الحديث) !! .

.... ولنتابع معالم التاريخ الدينى ، منذ أفول الدولة الفرعونية

إصطنعت أمم وشعوب العلم الإغريقى الرومانى أسماء يونانية ثم رومانية للثالوث المصرى الأوزورسى خاصة وغيره من معبودات الشرق الأونى القديم عامة ، ومزجت ماوصلها من ديانة المصريين وجيرانهم بالمعتقدات الإغريقية والرمانية السحيقة ، ليتشكل من المزيج تنويعات لا حصر لها من معبودات ومعتقدات تلك القرون العشر أو نحو ذلك (مابين الإسكندر وظهور الإسلام) ، التى تداخلت فيها ـ بقد ما تصارعت ـ فلول الوثنية والطوطمية المتأخرة مع طلائع الديانات السماوية المترابطة الثلاث : اليهودية فالمسيحية والإسلام .

*　　*　　*

تبعثرت اليهودية بالشتات . وتكونت نفسية مبتسرة لم تتخلص أبداً من غلبة الروح القبلية (الرعوية التجارية غير المستقرة) ، نفسية منطوية على الذات فى مرارة وفى وشك دائم فى الأغيار Aliens . وللتعويض ، نجح الإتجاه الكهنوتى (التلمودى) فى عمل تعبئة دائمة للطاقات النشيطة تضع قوة « الشعب المختار » فى مقارنة عصبية ولاعقلانية مع قوة أية شعوب أخرى تبرز على مسرح التاريخ ، وتقبل بتحدى إمبراطوريات (نعم ـ إمبراطوريات) .. ومن ثم تتورط فى مآزق مهلكة . والحق أن اليهودية لم تنجح فى أن تلعب أى دور توحيدى توافقى harmonizing role فى المجتمعات التى عاشت فيها ، ولم تحاول أبداً أن تلعب مثل هذا الدور ... ومن ثم فإنها كثيراً ما برزت

كعامل تفرقة وتمزق وهدم . ولا يعلم إلا الله إلى متى ، وكيف ، ستنتهى هذه الحالة .

* * *

أما المسيحية ـ فإنها ، وإن كانت قد انقسمت منذ القرون الأولى إلى ثلاث كنائس رئيسية، غربية كاثوليكية ، وشرقية ، ومصرية قبطية ، إلا أن كلاً من الأفرع لعب دوراً توحيدياً فى مجاله .

إنتشرت الكاثوليكية شمالاً بغرب ، فى إتجاه وسط أوروبا وشمالها وغربها ، حيث مجتمعات وجماعات بشرية حديثة العهد بالخروج من الرعوية القبلية والبربرية ، وهى ماتزال تخطو خطواتها الأولى فى سبيل التكوين كشعوب وأمم ، ارتقت بها الكنيسة روحياً ، وجمعت بينها فى وحدة دينية متنامية ، تحت القيادة الدعّوية المحكمة لبابا الفاتيكان . وفى موازاة هذه السلطة الدينية ، وفى علاقة توافق وصراع معها ، ادعت الإمبراطورية الرومانية المقدسة لنفسها نوعاً من السلطة الدنيوية على عدد لايحصى من ممالك وإمارات الإقطاع الأوربى فى القرون الوسطى . وكانت تلك الإمبراطورية إصطلاحاً جغرافياً أكثر من كونها دولة بالمعنى السياسى الإدارى . قامت على أنقاض روما القديمة ولم تأخذ عنها إلا إسمها تيمناً ، ولم يكن غالبية أباطرتها إلا رموزاً ومناظر .. باستثناء عدد محدود لم يغيبوا عن ذاكرة التاريخ ـ مثل شارلمان و شارلكان .

وانتشرت المسيحية الشرقية شمالاً بشرق . بدءاً من البلقان وصولاً إلى مرتفعات الأورال ، عبر سهوب أوكرانيا وروسيا ، حيث أخلاط من قبائل السلاف والبلغار والأجار والقوط ... التى كانت أيضاً ماتزال فى دور التكوين كشعوب وأمم ، ولعبت المسيحية الشرقية دوراً مشابهاً للدور الذى لعبته كنيسة

روما فى الغرب ـ وإن يكن على نحو أقل إحكاماً وتسلطاً .

أما كنيسة الإسكندرية ، الأرثوذوكسية القبطية ، فقد لعبت دورها المشهود فى الدفاع عن المصريين وهويتهم القومية ضد الهيمنة الرومانية والبيزنطية ـ تلك الهيمنة التى حاولت أن تبرر سلطانها باسم الأخوة المسيحية !! .. ولعبت الأرثوذكسية القبطية دورها فى التوحيد الروحى للمصريين ، بعد أن كانت الديانة الفرعونية قد أضمحلت ، وبعد أن كان من رفض المصريين للهيمنة الرومانية والبيزنطية . ولم يكن لنفوذ كنيسة الإسكندرية امتداد يذكر خارج الحدود المصرية إلا الإمتداد الأفريقى فى أثيوبيا ، الذى لم يكن إلا نفوذاً ورحياً فى الأغلب ، لا يتصدى لبعض الشئون الدنيوية إلا فى حدود ، وبحساب وحصافة . كذلك ، وجد دائماً نوع من النفوذ الروحى لكنيسة الإسكندرية على أورثوذكسى الشرق الأوربى ، فى البلقان وفى ورسيا القيصرية. غير أن العلاقات مع كنيسة موسكو كادت أن تصل إلى درجة التجمد التام بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ .. وهى الآن ، بعد أن تمت المصالحة بين الدولة والكنيسة هناك ، تعود إلى الإنتعاش والدفء .

* * *

... ثم كان ظهور الإسلام ، آخر الديانات السماوية . وانتشرت الدعوة الإسلامية ، فى القرنين السابع والثامن الميلاديين ، انتشاراً سريعاً على نحو لم يكن قد سبقه ـ حتى ذلك الوقت ـ مثيل . أطاحت فتوحات الراشدين والأمويين بالإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، اللتين كانتا تقتسمان الهيمنة على شبه القارة الأوسطية المتوسطية حينذاك . وطوت الدعوة الإسلامية تحت لوائها عدداً لا يحصى من الإمارات والولايات والممالك . وللإسلام فضل تحقيق معجزة الإنهاض الروحى لأمم وشعوب هذه المنطقة ، بعد قرون طويلة من الفراغ الروحى

والترهل الحضارى ، اللذين ميزا حقبة اضحملال ممالك الشرق القديم ، وضمور بعض من سماتها الحضارية العتيقة ، وبعد الخلط والتشويش الذى أصاب عقائدها ودياناتها ... وبعد أن كانت بعض شعوب المنطقة قد دخلت فى تجربة مريرة مع نوع من المسيحية القيصرية ، التى لبست أثوابها قوى البطش والهيمنة الأجنبية (البيزنطية والرومانية) .

وأرسى الخليفة عمر بن الخطاب ، منذ البداية ، تقاليد تعتبر - بمقاييس زمانه - متميزة فى مجال التسامح والتعايش بين الديانات والمعتقدات والأمم والحضارات ، ومن ثم ، ليس بمستغرب أن اعتبرت غالبية الشعوب التى كانت تحت الحكم الفارسى أو البيزنطى - اعتبرت العرب المسلمين محررين . ودخل الناس فى الدين الجديد أفواجاً .

وفى القرون الأولى للهجرة (وحتى حقبة السيطرة التركية على الخلافة ، انفتح المفكرون المسلمون على بعض من أهم التراث العلمى والفلسفى للحضارات السالفة ، فاستفادت الدولة الإسلامية وأفادت ، وكان لها الفضل فى حفظ كثير مما بقى من هذا التراث ، الذى عاد - بعد أن أغناه وطوره المفكرون المسلمون ليكون له دور أساسى فى إنهاض الفكر والضمير الأوروبى ، بعد أن استقيظت القارة من قرونها الوسيطة ، ونهضت .

ولما كانت الخلافة الإسلامية تجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فى مؤسسة واحدة ، فإنها لعبت دورها - بفاعلية - فى جعل وحدة الدولة الإسلامية أكثر تماسكاً ، لقرون عديدة ، من نظريتها الأوروبية ... نعنى تلك الإمبراطورية الرومانية «المقدسة» السائبة تحت القيادة المزدوجة المضطربة - البابوية/الإمبراطورية .

ومنذ انتشار لغة القرآن العربية فى مصر وبلاد الشام ومابين النهرين

والشمال الأفريقى ... واحتوائها لمجموع اللغات السامية ، تشكل هذا «الوطن العربى» ليكون فى العالم الإسلامى بمثابة القب ، وليكون هو الوطن لما عرف فيما بعد باسم «القومية العربية» .

* * *

وكانت الحروب الصليبية ، بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر الميلاديين ، نوعاً من اليقظة الأوروبية الكاذبة . تعجلت أوروبا ، بعيد خروجها من البربرية البدائية ، حيث حاولت أن تجرب عقيدتها الدينية الجديدة كأيديولوجية للتوحيد السياسى والعسكرى ، وكأداة معنوية لتعبئة فائض طاقاتها الحيوية الخشنة المراهقة لتحدى مجتمعات ناعمة فى دفء الجنوب المشمس الوفير الخيرات .. مجتمعات كانت قد استقرت حضاراتها الزراعية وازدهرت حواضرها التجارية وثغورها البحرية منذ زمان طويل .. ووصلت طبقاتها العليا المتميزة (أستوقراطيات زراعية وقيارات تجارية عسكرية ..) إلى حال من الرضى عن النفس ، والدعة ، وتكرار الذات ، وهى حال اعتبرتها أهم مدارس التاريخ ركوداً ، بل جموداً طويل الأمد .

هُزمت الحملات التى شنها الأوروبيون الصليبيون ضد الشرق الأدنى الإسلامى ، حيث أمم شعوب وبلاد ذات حضارات ضاربة فى القدم ، كانت ماتزال مسايرة للزمن قادرة على المواجهة .. ولكنهم ، أعنى الأوربيين ، حققوا أهدافهم فى الأندلس . وهناك ، ساعدت ثورة الرأسمالية التجارية التى كانت فى صعود على مسرح التاريخ فى إيطاليا وأسبانيا والبرتغال ، ساعدت على إعطاء المد الصليبى الأوربى إمكانات أعظم وفاعلية أكبر .

وما كادوا أن يفرغوا من الأندلس ، حتى اندفع التجار والبحارة والقراصنة والمغامرون الأوروبيون ، فى تحالف مع ملوك مستبدين غلاظ يدّعون

الحق المقدس ، وأباطرة متعظشين للمجد مشمولين بالرعاية البابوية .. اندفعوا - وهم يحملون الصليب وفى صحبة جيوشهم كهنوت كنسى يبشر باسم المسيح - اندفعوا يبحثون عن متنفس لفائض الطاقة العدوانية والشهوة التوسعية فيما وراء البحار ... لقد بدأت قرون مظلمة جديدة (*) ، قرون الإستعمار الأوروبى الغربى الرأسمالى الحديث .

(*) ربما يصدم هذا التعبير القارىء إذا كان أوروبياً ، أو غربياً ، أو من مثقفينا المتغربين .ولكن هذه « القرون الحديثة » لم تكن بالنسبة للشعوب الملونة فى آسيا وأفريقيا واستراليا وأمريكا اللاتينية - لم تكن إلا قروناً مظلمة فى جملتها . وهى أشد إظلاما فى القرن العشرين مما كانت من قبل .

منذ القرن الخامس عشر ، استخدم المستعمرون الأوروبيون المسيحية الغربية كسلاح إيديولوجي لتبرير استعمار قارات بأسرها ، والإستيلاء على ثرواتها ، والقتل الجماعي لملايين من سكانها ، وافقار من بقي من أبنائها أو الإتجار فيهم كعبيد . وهكذا آل إلى أساطين الرأسمالية والإستعمار ، بعد ملوك الإقطاع وأمرائه ، مهمة استنفاد الرصيد الروحي والوازع الأخلاقي الذي جاءت به دعوة السيد المسيح .. هذه الدعوة التي ظهرت على أرض حضاراتنا ، حضارات الشرق الأدنى القديم كدعوة لتحرير العبيد والتخفيف عن المضطهدين والدفاع عن المستضعفين هذا ، ولم تتوقف (وإن لم تنجح حتى الآن إلا قليللا) محاولات المصلحين الدينيين المسيحيين ذوي النزعات الإنسانية - أن يعيدوا إلى المسيحية روحها ورسالتها الأولى . (وجدير بالذكر أن غالبية المحاولات الجادة ، في أيامنا هذه ، تأتي من مسيحي العالم الثالث) .

* * *

عودة إلى التاريخ نقول إن أجيالاً جديدة من فلاسفة عصر التنوير الأوربي ومفكريه (ونخص بالذكر رائدهم الكبير فولتير) انتقدوا السلطة الكنسية انتقاداً لاذعاً لأنها جعلت من المسيحية دعامة أساسية للتخلف والإستبداد الإقطاعي في داخل المجتمعات الأوربية ، وراعية لإستعباد الإنسان للإنسان والأمم على النطاق العالمي . ومن ثم كانت الدعوة لفصل الدين عن الدولة إحدى المقومات الأساسية التي قامت عليها التحررية (الليبرالية) الأوربية .

وبعد أن انتصرت الثورة ضد الإقطاع في غرب أوروبا ، واستقرت السلطة في أيدي الطبقة البورجوازية (الرأسمالية) ، تم التصالح بين الدولة والكنيسة على أساس السماح بحرية العقيدة ، وحماية حق الفرد في ممارسة

الشعائر الدينية .. وفى نفس الوقت منع تدخل رجال الدين فى شئون الحكم .

* * *

وعلى الجانب الآخر ، كانت الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى الثانى ، بدءاً من خلافة المعتصم ، قد شرعت فى الإنحدار . وكان استئجار الخلفاء العرب لقوات وقادة عسكريين من الأتراك (بتنويعاتهم) ـ كان عاملاً أساسياً فى إضعاف الدولة . ومع الوقت ، ازدادت مؤسسة الخلافة ضعفاً وفساداً، وتحول الخلفاء إلى دمى فى أيدى عسكريين مرتزقة أفظاظ ، يعينون الخلفاء ويعزلونهم ، وأحياناً يقتلونهم أو يسملون عيونهم ويضعونهم على أبواب المساجد يتسولون ! وأخيراً تمكنت الأخلاط التركية من تأسيس دولة لهم، سرعان ما أصبحت القوة العسكرية الأولى فى العالم الإسلامى ، والدولة التى لها الهيمنة على شبه القارة الأوسطية المتوسطة . ولإكمال الهيمنة ، نقلوا مقر الخلافة إلى عاصمتهم فى اسطنبول .

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية وقفت، حوالى ثلاثة قرون ، فى وجه تجدد المد الصليبى الأوروبى شرقاً أو جنوباً ، إلا أن الحصيلة الحضارية الثقافية للحكم العثمانى فى المنطقة كان سلبياً فى جملته . فقد أكمل خلفاء آل عثمان ابتذال استخدام الدين لدعم سلطانهم الإستبدادى ، ولتبرير الإضطهاد القومى للشعوب والأمم غير التركية ، بما فى ذلك شعوب وأمم البلاد العربية الإسلامية . وفى هذه البلاد ، ظهرت اتجاهات إسلامية إصلاحية ، كانت جزءاً من حركات المقاومة فى هذه البلاد ضد التسلط والقهر العثمانى .

وحين بدأت الدعاوى الليبرالية تصل إلى مثقفى ومهنيى أبناء الطبقة المتوسطة الجديدة التى جاءت مع « التحديث » فى القرن التاسع عشر ، فإن أجيالاً متعاقبة من ذوى الإتجاه الليبرالى فى العالم العربى تبنت فكرة الدولة

العلمانية (أى فصل الدين عن الدولة) . وأصبحت الفكرة من المبادىء الأساسية التى تنبتها غالبية الإتجاهات القومية الحديثة ، ثم الإشتراكية فيما بعد .

والقومية ، فى تعريف موجز ومبسط ، هى إرادة العيش معاً . وهى إرادة تضم جماعة من الناس تعيش على رقعة متصلة من الأرض (هو الوطن) ، لها لغة مشتركة ، وتكوين حضارى ثقافى مشترك ، وحياة اقتصادية مشتركة وتستكمل القومية مقوماتها وتحقيق ذاتها بإقامة الدولة المركزية الواحدة، وهى التعبير المؤسسى المكتمل عن إرادة العيش معاً .

وكانت الأرستوقراطية الزراعية فى وديان الأنهار الكبيرة فى الحزام الكومبى الدافىء (فى مصر ومابين النهرين والصين والهند ..) هى الطبقة التى قادت عمليات الإنضاج الحضارى والتوحيد القومى وتأسيس الدول المركزية فى هذه الأوطان العريقة منذ آلاف السنين . ومن ثم عرفت هذه الأوطان ذلك النوع الأقدم من القومية ، **قومية الحضارة الزراعية النهرية** .

فى أوروبا ، فإن عمليات التوحيد القومى لم تبدأ إلا حديثاً ، منذ بضعة قرون فحسب، حيث قادت البورجوازية الأوروبية عمليات التوحيد القومى. **ومن ثم عرفت أوروبا نوعاً آخر من القومية ، قومية الحضارة الأوربية ، التجارية الصناعية الحديثة** . ولعبت حركات التوحيد القومى دوراً تاريخياً تقدمياً فى أوروبا ، حيث أسهمت فى تحرير الأمم الأوروبية من التخلف والتمزق الإقطاعى . أما خارج حدودها الوطنية الخاصة، فإن الدول القومية الأوروبية انتهجت سياسة قائمة على التوسع والمنافسة ، التوسع على حساب الأمم والشعوب الأكثر ضعفاً ، والمنافسة مع أقرانها من

الدول الصناعية القوية على الأسواق ومصادر المواد الخام . هكذا سارت القوميات الحديثة ، الصناعية التجارية المالية، فى طريق الإستعمار والحرب .

وترتب على طغيان المد الإستعمارى الأوروبى نتيجتان:

١ ـ أفرخت الأمم الأوربية نوعاً آخر من القومية على أراضى قارات أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية واستراليا ، وتلك هى « **القومية الإستيطانية الحديثة** » ، التى نمت واكتملت على أيدى خليط المهاجرين البيض الأوربيين ، بعد أن استوطنوا هذه القارات وأقاموا دولهم القومية فيها على أشلاء السكان الأصليين الذين عجزوا عن الصمود أمام موجات هجرة الرجل الأبيض واستعماره الإستيطانى .

٢ ـ **أفاقت قوميات الحضارة الزراعية القديمة** ، وبدأت تدرك مدى الضعف والجمود الى أصابها أثناء عصورها الوسيطة ، وخطورة الهوة الحضارية التى تفصلها عن الغرب الأوروبى الحديث ، وشرعت تتعلم من أوروبا وتستعير منها ما يعينها على مواجهة التحدى الإستعمارى . ومن ثم كانت **حركات « النهضة » التى عرفتها بعض الأمم الشرقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر** ، وجعلت على رأس أهدافها وقف الزحف الإستعمارى وبناء الدولة العصرية والأخذ ببعض أساليب الحياة الأوروبية . ولم تلبث مقاومة الهيمنة الإستعمارية أن أخذت أبعاداً عالمية فيما عرف **بحركات التحرر الوطنى فى قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، التى وصلت إلى ذروة تاريخية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وما تزال تخوض معارك تشتد ضراوة حتى يومنا هذا .**

الليبـــــرالية :

لم تكن حركات التوحيد القومى وحدها فى سلسلة الملاحم التى أطلقت أوروبا إلى رحاب عصرها الحديث ، وأنهت التمزق الإقطاعى وأفضت إلى قيام الدول القومية العصرية ، وأسدلت الستار على أوروبا المتخلفة التى كانت تشيع فيها الخرافات والشعوذة لتصبح مناراً للتقدم العلى ومهداً للثورة الصناعية ، ونقلت القارة من نمط فقير من أنماط الحضارة الزراعية إلى النمط الصناعى الغنى ، وحققت للرجل الأبيض التفوق الإقتصادى والقوة العسكرية ورفعته إلى مراكز القيادة العالمية ..

نقول إن حركات التوحيد القومى لم تكن وحدها فى هذا المعترك ، إنما الليبرالية (أو التحررية) الأوروبية هى الوجه الآخر ، والمكمل ، لتلك الصحوة الأوروبية الشاملة .

على إمتداد حوالى ثلاثة قرون (بدأت فى وقت ما من عصر النهضة وشملت عصر التنوير) تمكن رواد الليبرالية من تفجير أكبر **ثورة فى الفكر الفلسفى** ، بعد قرون طويلة من الخمول والجمود والعقم ، و هى الثورة التى لها تداعياتها وإشعاعاتها فى مناهج البحث العلمى وتطبيقاته التكنولوجية ، كما فى مجال العلوم الإنسانية وتطبيقاتها الإجتماعية والسياسية والإقتصادية، بل وفى مجالات الإبداع الأدبى والفنى جميعاً .

وكان الصدام محتوماً بين رواد الليبرالية الأوروبية ورجال الدين . فقد كان الباباوات والكرادلة منحازين تماماً للإقطاع ، بل كانوا جزءاً لا يتجزأ منه ، حيث تصدى الجبروت الكنسى لطلائع المناضلين ضد طغيان الملوك والأباطرة والأمراء والباباوات ونشط لتكفير رواد المنهج العلمى والتقدم التكنولوجى . وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية ومحاكم التفتيش التابعة لها (قبل تراجعها أمام

الإصلاح البروستانتى وهزيمتها أمام الثورات البورجوازية فيما بعد) تاريخ متصل لأشكال مروعة من الإرهاب الفكرى والتعذيب الهمجى وعدد لا يحصى من أحكام الموت حرقاً . من ثم جاءت الليبرالية بمزيج من دعاوى التحرر من استبداد النظم الملكية الشمولية والسلطة الكهنوتية معاً ، حيث نادت بفصل الدين عن الدولة ونادت بفصل السلطات ، أى **بتحرير الحكم من الأرهاب الكهنوتى والمواطن من الإرهاب الحكومى** . ونادى الليبراليون بإعلاء مبادىء حقوق الإنسان، وخاصة حق الإنسان فى إعتناق أى مبدأ أو عقيدة وفقاً لقناعته دون وصاية أو إرهاب من جانب الدولة أو الكنيسة ، وكذا حقه فى إعلان رأيه والدفاع عنه ، خاصة حق الأفراد والجماعات فى إصدار الصحف التى تعبر عن وجهات نظرهم وتكوين الأحزاب التى تنظم نضالهم ، وحق المواطن أن يعيش حراً آمناً من أى جور أو تجاوزات سلطوية ، وألا يلقى عليه القبض أو يسجن إلا بأمر قضائى ، وأن تكون قوانين الدولة ومبادئها الدستورية غير مجافية لمبادىء حقوق الإنسان .. هذا، وقد أعلت الليبرالية السياسية من شأن السلطة التشريعية (البرلمان) ، واعتبرت أن من حق الأغلبية البرلمانية تشكيل الحكومة ، وأن يكون البرلمان هو الرقيب على أعمال الحكومة . ومن ثم سميت الأنظمة التى قامت على مبادىء الليبرالية « **الديموقراطيات البرلمانية** » .

وفى المجال الإقتصادى اتجهت الليبرالية إلى الدعوة إلى إزالة الحواجز والحدود الإقطاعية وتوحيد السوق القومى ، بإعتبار ذلك أهم شرط للتنمية الإقتصادية ، ودعت إلى إطلاق حرية رأس المال فى الإستثمار دون قيود أو احتكار حكومى ، وحرية اليد العاملة فى الإنتقال وحرية العمل فى اختيار صاحب العامل ، كما دعت إلى إعلاء مبدأ التجارة الحرة بين الدول ، وتخفيف

الحواجز والإجراءات الحمائية إلى أدنى حد ممكن .

وفى مجال الآداب والفنون (وتجليات الوجدان البشرى عموماً) ، حاول رواد الليبرالية من خلال نهضة أدبية وفنية لا نظير لها فى التاريخ الأوروبى - حاولوا الإعلاء من شأن الإنسان وتمجيده جسداً وروحاً ، ومن ثم عرفت الليبرالية بنزعتها الإنسانية . وسعت إلى تحرير الإنسان من شعور كان سائداً بأن الخطيئة هى المكون الأصيل للحالة الإنسانية . وذهب الليبراليون الإنسانيون إلى أن ذلك شعور سعت الكنيسة على تعميقه لفرض وصياتها على الناس وإخافتهم ، وإيهامهم بأن رجال الكهنوت هم وحدهم القادرون على تخليص الناس من خطاياهم ، والتخفيف عنهم يوم الحساب .

الإشـــــتراكية

وقد كانت وعود الليبرالية كبيرة حقاً ، فلم تقتصر على التبشير بتحقيق مجتمع « الحرية والإخاء والمساواة » داخل حدود كل دولة وطنية على حدة ، وإنما ذهب بعض المتفائلين من فلاسفتها ، مثل إيمانويل كانت فى أوائل القرن التاسع عشر ، إلى القول بأن نجاح التعاليم الليبرالية وسيادتها على المجتمعات الأوروبية الأساسية حينذاك كفيل بأن يتحقق حلم الإنسانية فى سلام عالمى دائم.

غير أن تفاقم التناقضات الإجتماعية والإضطرابات السياسية والحروب الطاحنة التى أعقبت إنتصار الثورات ضد النظم الإقطاعية وإنجازات الثورة الصناعية فى عدد من أهم بلاد أوروبا الغربية - هذه وتلك أثبتت أن المتشائمين كانوا أصدق حدساً وأنفذة بصيرة ، إذ سرعان ما أصبح نقاد النظم الأوربية الجديدة (الرأسمالية) أكثر تعبيراً عن واقع الحال من المبشرين بمجتمع الحرية والإخاء والمساواة . واتسعت دائرة نقاد أوروبا الجديدة لتشمل أشهر كتاب الرواية

الواقعيين ، والشعراء الرومانسيين ، والإقتصاديين الكلاسيكيين ، وبقايا الثوار الراديكاليين ، والدعاة الأخلاقيين ... وصولاً إلى جماعات من الإصلاحيين الإجتماعيين عرفوا باسم الإشتراكيين الخياليين (أو اليوتوبيين) . وبظهور ماركس ، ونشر « البيان الشيوعى » الذى حرره عام ١٩٤٨ ، ولدت الإشتراكية ميلاداً جديداً ، أقوى تأثيراً وأبقى على الزمن ، وسميت الإشتراكية العلمية (ثم الشيوعية فيما بعد) . وحافظ مسلسل كبير من تلاميذ ماركس على تراثه الفكرى ، وطوروها لتساير التغييرات السريعة فى المجتمعات الصناعية الحديثة وإمبراطورياتها العالمية ، وأشهر هؤلاء فلاديمير لنين الذى قاد الثورة البلشفية فى روسيا عام ١٩١٧ ، ثم ماوتسى تونج أشهر قادة حروب التحرير الوطنى فى القرن العشرين ، ومؤسس جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ .

... فى الأثناء اكتملت ملامح العقيدة السياسية الإجتماعية التى بذر بذورها كارل ماركس ، وتفرعت أصولها الأوروبية (شأنها فى ذلك شأن الليبرالية من قبل) ووصلت إلى كل البلاد فى جميع القارات ، وأصبح العالم يعج بفرق وأنماط وأنواع من تفريعاتها ، وأطلقوا على أنفسهم أسماء اشتراكية أو شيوعية أو تقدمية أو عمالية حسب الأحوال ، وارتفعت رايات الإشتراكية بتفريعاتها وتنويعاتها على الأبنية الحكومية فى بلاد تضم أكثر من ثلث سكان العالم، وهو نصيب لم تسبقها إليه أية عقيدة أخرى .

ومع الإتساع والتنوع ، فقد المنتمون والمنتسبون والمتكلمون بالإشتراكية ومشتقاتها كثيراً مما كانوا يتميزون به فى البدء من تجانس الفكر ووضوح الرؤية وتناسق الحركة وتحديد الهدف وإنكار الذات وصفاء النفس .. تفرقت السبل . وهبطت الموجة الإشتراكية (وأنماطها الشيوعية خاصة) ، وفقدت قوة الدفع

التاريخية .

وفى الأثناء ، لم تتوقف المؤامرات والحروب لإحباط المشروع الإشتركى الذى كان يحلم بخلق الجنة على الأرض كلها . وهى حروب لم يشهد التاريخ مثيلاً لها وحشية وهمجية وخبثاً ، هبطت بالقرن العشرين إلى مستوى لم تتدن إليه همجية العصورة المظلمة السابقة . وطور خصوم الإشتراكية أساليب الحرب ضدها ، ومن بينها ـ وأهمها ـ التسلل إلى صفوفها وإفسادها من داخلها فكرياً وحرف مسارها بتوظيف طاقات تنتسب لها ، وتحويل كثير من التشكيلات والأحزاب التى ترفع شعاراتها فى العلن إلى فصائل تتآمر ضدها فى الخفاء ـ تقتل وتفسق لتصفيتها وتدميرها . ولأن المعارك كانت أشد قسوة مما يتصور الناس الذين لم يقبضوا على الجمر بأيديهم ، ولأن الضعف البشرى مايزال غالباً، فقد انتقلت عدوى الهمجية لتصيب الجميع . ولم يكن الحكام الذين رفعوا رايات الإشتراكية استثناءً ، حيث غلب السلوك الشيطانى الذى يجرد الممارسة السياسية من القيم الأخلاقية .

ومن جانب آخر ، فإن الإشتراكية ، شأنها شأن الليبرالية من قبل ، تحولت من دعوة ثورية تعمل على تحرير المستضعفين والمستغلين إلى ناموس عقائدى لحكام وطبقات اجتماعية جديدة ابتكرت أشكالا جديدة من الإستغلال والإمتيازات . وقد شارك هؤلاء ، على طريقتهم ، خصوم الإشتراكية فى إفساد روح العقيدة الأم ، وتشويه جوهرها التحريرى ورسالتها الإنسانية . والإشتراكية فى هذا ليست خروجاً على القاعدة التى لم تشذ عنها عقيدة من قبل ... وهكذا أصبح نقاد الإشتراكية داخل المجتمعات الإشتراكية ذاتها ، أكثر تعبيراً عن واقع الحال من المدافعين والمبررين . ومرة أخرى ، كما حدث من قبل فى التاريخ ، ينشغل النقاد إما بإصلاح الإشتراكية من داخلها أو بالبحث عن بديل يحل محلها .

أزمـــة الإيديـولوجيـــة الســـــوفيتية (*)

التركية الإيديولوجية واللافتة الإيدولوجية

التركيبة الإيديولوجية لأى مجتمع معاصر لابد وأن تحتوى على عناصر مستمدة من هذه المنابع الأربعة (الدين والقومية والليبرالية والإشتراكية) ، وإن يكن بجرعات أو نسب تختلف من تركيبة إلى أخرى . أما اللافتة الإيديلوجية المعنلة (والتى غالباً ما يجرى تعبئة الجماهير حولها) ، فإنها متحيزة موجزة، تكتفى بإبراز أحد المنابع دون غيره ، أو بالأخرى أحد الأفرع الكثيرة لهذا المنبع أو ذاك . وليس شرطاً أن تكون اللافتة الإيديولوجية صادقة الدلالة عن جوهر التركيبة الإيديولوجية . فاللافتات الإيديولوجية التى ترفعها كثير من المجتمعات (أو الأحزاب أو الجماعات) كثيراً ماتكون تعبيراً عن وعى زائف ساعد الضجيج الداعائى على ترويجه بين الناس أو تكون مجرد وسيلة لجمع أعوان أو تعبئة جماهير أو التقرب من قوى خارجية أو دعم اتفاقات أو تحالفات دولية .

وعليه ، ليس بمستغرب أن تتنوع التركيبات الإيديولوجية لمجتمعات (أو أحزاب أو جماعات) ترفع لافتات إيديولوجية عليها كلمات متشابهة أو متقاربة .

(*) كتب هذا الفصل قبل حوالى سبعة شهور من محاولة انقلاب ١٩ أغسطس الفاشل فى الإتحاد السوفيتى . وفى الفصلين الأخيرين من هذا الكتاب تابعنا تحليل الخلفيات الإيديولوجية الأساسية لآخر ما وصلت إليه أزمة النظام السوفيتى

فمثلاً : من المعروف أن اللافتة الإيديولوجية التى رفعها كل من الإتحاد السوفيتى والصين ويوغسلافيا فى أعقا الحرب العالمية الثانية كانت هى لافتة الشيوعية (الماركسية اللينينية) . ولكنَ حتى قارىء الصحف العادى لاحظ - من متابعة سير الأحداث واختلاف المواقف - أن التركيبة الإيديولوجية لكل طرف تختلف عن الآخرين ، وأخذت تنتشر فى الأدبيات السياسية تعبيرات مثل الشيوعية السوفيتية /الستالينية ، والشيوعية اليوغسلافية/التيتوية ، والشيوعية الصينية/الماوية . ومع الوقت . إتسعت دوائر الخلاف بينها إلى أن تمايزت كل منها عن الآخرين تمايزاً يكاد أن يكون نوعياً .

وفى الأثناء ، اختلفت مواقف الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الغربية عن مواقف الحزب السوفيتى وأتباعه فى أوروبا الشرقية . وتعاظمت الإختلافات مع الوقت .. إلى أن أصبح واضحاً أن اختلاف المواقف يرجع - فى بعض من أهم أسبابه - إلى إختلافات أصلية فى التركيبات الإيديولوجية . وبرزت « الشيوعية الأوروبية » كتركيبة أيديولوجية متميزة للشيوعيين فى غرب أوروبا . وترتب على هذا الموضوع مواقف سياسية واختيارات استراتيجية ورؤى حضارية مختلفة اختلافاً متعاظما عن نظائرها فى شرق أوروبا والإتحاد السوفيتى

أكثر من هذا : أثبتت أحداث الأعوام الأخيرة أن التركيبة الإيديولوجية داخل الحزب الشيوعى السوفيتى نفسه تختلف من جمهورية سوفيتية إلى أخرى . فالتركيبة الإيديولوجية لجمهوريات آسيا الوسطى التى تدين شعوبها بالإسلام ، والتى كانت - تاريخياً - خاضعة للهيمنة الإستعمارية الروسية ، وكانت - حتى الأمس القريب - مجتمعات رعوية عشائرية عتيقة ولم تتعرف

على نمط الحياة العصرية إلا فى ظل النظام السوفيتى .. هذه التركيبة الإيديولوجية تختلف عن التركيبة الإيديولوجية لشعب جمهورية روسيا الإتحادية ، حيث الديانة مسيحية أورثوذوكسية ، وحيث كانت القومية الروسية هى المسيطرة أيام النظام القيصرى ، وحيث كانت بتروجراد تضاهى العواصم الكبرى فى غرب أوروبا ، والكتاب والعلماء والفنانون يحتلون مكانة لا تقل عن مكانة نظائرهم فى انجلترا وفرنسا وألمانيا .

هكذا نرى أنه تحت اللافتة الإيديولوجية للشيوعية يمكن أن تنبت وتنمو وتتطور تركيبات إيديولوجية متنوعة بغير حصر . ومن المؤكد أن مايسرى على الشيوعية يسرى على غيرها من اللافتات الإيدولوجية الكبرى فى زماننا .

وثمة نتائج أخرى يمكن استخدامها من تأمل مسار الإيديولوجية الشيوعية وتفريعاتها .

فالملاحظ ، مثلا ، أنه منذ تأسيس الدولة السوفيتية حتى زمن البريسترويكا ، انشغل الإيديولوجيون السوفييت الرسميون انشغالاً تاماً بالتأكيد على أهمية اللافتة الإيديولوجية العريضة للشيوعية ، واتخذوا مواقف صارمة لقمع المحاولات التى بذلها شيوعيون مجتهدون ، فى داخل الإتحاد السوفيتى وخارجه ، لإكتشاف الخصوصيات الإيديولوجية المنْضَوية تحت لافتة الشيوعية الموسكوفية ، بدعوى أنه لا توجد سوى شيوعية واحدة ووحيدة ، دون أن يتبينوا أنهم لم يكونوا يدافعون سوى عن لافتة إيديولوجية تخفى وراءها تركيبة إيديولوجية واحدة ، هى إيديولوجية الدولة السوفيتية.

وليس أمامنا ، بعد أن أصبح كل هذا فى ذمة التاريخ ، إلا أن نقول إن عدم التمييز والخلط الذى وقع فيه الإيديولوجيون السوفييت بين اللافتة

الإيديولوجية والتركيبة الإيديولوجية، والتأكيد على الأولى مع إنكار الثانية - كان وليد ظروف تاريخية شديدة الخصوصية . فالهم الأساسى الذى شغل به الإتحاد السوفيتى منذ تأسيسه كان هو ضمان أمنه فى الداخل والخارج ضد خصوم لا مجال للمبالغة فى قوتهم . ومن ثم كان التأكيد على المبادىء العامة التوحيدية للإيديولوجية الشيوعية ضرورة ، كان سياجاً إيديولوجياً يساعد على أوسع تعبئة ممكنة لمواجهة الخصوم . وفى محيط من شعوب وأمم متخلفة تغلب فيها الأمية ، ومناخ حضارى شبه ريفى .. ووسط عواصف هوجاء من الإضطرابات الداخلية وحروب التدخل والمنازعات الأهلية والحصار الإقتصادى والتخريب المخابراتى .. فى هذا الخصم ، كان التسامح مع - أو السماح بالإجتهادات الفكرية التى تُنقّب عن الخصوصيات القومية ، والإنشغال براجعات لمسايرة الماجريات ، وطرح الخلافات الإيديولوجية للنقاش .. كان كل ذلك ترفاً لا تحتمله الدولة السوفيتية الوليدة إلا فى أضيق الحدود . وإذا كان لجوزيف ستالين فضل فى المجال الإيديولوجى ، (ومن المكابرة أن ننكر عليه ذلك) فإنه يتلخص فى أن هذا الرجل الذى أرسى دعائم الدولة السوفيتية كان أقدر من عبر عن ضرورات « التحيز والإيجاز » اللازمان لتعبئة الشعوب السوفيتية تعبئة كان لابد أن تكون شبه عسكرية . وإن كان من المتفق عليه أن خطاياه الإيديولوجية هى الغالبة ، فهى تتلخص فى أنه سار فى هذا النهج إلى أبعد مما تطلبته الضرورات الموضوعية والتطورات التاريخية بكثير ، واستسهل استخدام أشد الأساليب قسوة وفظاظة لفرض هذا النهج .. ومن حكم على الفكر الشيوعى بالسطحية والجمود ، ودفع المجتمع إلى الركود والنظام إلى الشمولية ، ووصل « بالمنظومة الإشتراكية » العالمية - أحزاباً وحكومات - إلى علاقات تتسم بالهيمنة الظالمة والمآزق المدمرة .

لغتـــان للإيديولوجيـــة

عندما نتأمل الدروب الوعرة التى حفرتها المعارك الأيديولوجية الضارية مع الشيوعية أو ضدها أو فيما بين فرقها ، نستطيع أن نستخلص أن ثمة لغتين للإيديولوجية : لغة للتعبئة الإيديولوجية ولغة للتطوير الإيديولوجى .

تتسم لغة التعبئة الإيديولوجية بالتحيز والتبسيط والإيجاز وادعاء اليقين ، وهذه سمات قد تساعد ، ولو إلى حين ، على تحقيق درجة أعلى من التجانس الإيديولوجى بين أفراد الجماعة ، والتوافق بين طبقاتها وفئاتها الإجتماعية ، ووضوح أهدافها ، وحسن إدارة شئونها ، وتوظيف طاقاتها .. .. إلخ . غير أن انغلاق الجماعة على هذا النهج ، أو الإفراط فى استخدامه ، أو استسهال فرضه بأساليب تحكمية أو سلطوية .. ينطوى على مخاطر مؤكدة ، من بينها أن يتحول التحيز إلى تعصب ، والتبسيط إلى تسطيح ، والإيجاز إلى إنكار جوانب أساسية من الحقيقة الموضوعية ، وإظهار اليقين إلى مصادرة الفكر والحجر على الفن والأدب وخنق الطاقة الروحية للجماعة ... وهى أمراض لو تمكنت من الأمم والشعوب لأوردتها موارد التهلكة .. بل لو تمكنت من الجنس البشرى (وهذا خطر ليس بمستبعد ، لأنهت وجود الإنسان على ظهر هذا الكوكب .

من ثم ، يتوجب على الجماعة الإنسانية (أية جماعة) أن تسمح بوجود اللغة الأخرى المكملة ، **لغة التطوير الإيديولوجى** ، وأن ترعاها وتسهر على حمايتها .. **لغة تنفتح على كل جديد يأتى به التطور التاريخى والتقدم العلمى ، وعلى كل ما تتوصل إليه الجماعات الأخرى خارج دوائرها الخاصة ، الدينية والإجتماعية**

والوطنية والعقائدية .. وهى لغة لابد أن تأخذ فى الإعتبار كل مايطرأ من تغييرات تصيب سائر الموجودات والكائنات على ظهر هذا الكوكب ، وكل مايحدث فى أرجاء الكون الذى تتكشف أسراره بفضل العلم الحديث .. لغة إنسانية سمحة متسامحة بقدر ما تكون عقلانية مدققة ناقدة .. لغة تعتبر أن المراجعة الدائمة للتركيبة الإيديولوجية وتطويرها ضرورة تمليها نواميس الوجود التى ليس فيها حقيقة ثابتة إلا حقيقة أن كل شيء فى تغير مستمر وتطور دائم . ومن يتجاهل هذه الحقيقة أو يجهلها فإنه لن يجر على نفسه إلا الدمار المحقق .

الحالة الإيديولوجية . . والجهاز الإيديولوجى .. والبريسترويكا

يعرف الباحثون أن تشخيص « الحالة الإيدينولوجية » فى البلاد التى كانت (أو ماتزال) ترفع رايات الشيوعية بتنويعاتها المختلفة أسهل كثيراً من تشخيص الحالة الإيديولوجية فى البلاد التى ترفع رايات العداء للشيوعية .

فاللافتات الإيديولوجية فى البلاد الشيوعية عليها كلمات متشابهة وشعارات متقاربة ، وهى دائماً شديدة الوضوح وطويلة الأمد . والتركيبات الإيديولوجية فيها أشبعها الباحثون والأشياع توضيحاً وتحليلاً كما أشبعها الناقدون والخصوم تشريحاً وتجريحاً . وانجلى الجدل المحتدم (ومايزال يكشف) عن كثير من الخصومات المحلية والخلافات الداخلية والمسارات التاريخية لمحاولات التطوير فى مواجهة عمليات التجميد . وفى الأثناء افتضحت أساليب الإرهاب الفكرى التى مارستها قيادات الأحزاب الشيوعية لإخضاع قواعدها ورعاياها ، ووسائل الإخضاع الإيديولوجى التى مارسها الإتحاد السوفيتى لإلحاق بلاد « المنظومة الإشتراكية » وتوظيف « الأحزاب الشقيقة» . ولم

يعد خافياً أن حصيلة الحرب الإيديولوجية التى خاضتها القيادة السوفيتية خلال الأربعين عاماً التى أعقبت الحرب العالمية الثانية كانت حصيلة سلبية ، أدت إلى الإنهيارات المدوية التى شهدها العالم أخيراً .

وفى تقديرنا أن الدعوة التى جاء بها ميخائيل جورباتشوف فى البريسترويكا والجلاسنوست تنطوى على أكبر محاولة تبذل (منذ ١٩١٧) لتطوير التركيبة الإيديولوجية للدولة السوفيتية وتجديد شبابها . ولأن الظلام كان كثيفاً والجمهود مستحكما فإنه أصبح من الضرورى أن تبذل المحاولة الجديدة تحت لافتات جديدة وشعارات جديدة يجرى اكتشافها . إنها ـ بمنظورنا ـ محاولة لإعطاء المنابع الثلاثة الأساسية (الدين والقومية والليبرالية) أنصبتها المهدرة ومكانتها الضائعة فى التركيبة الإيديولوجية السوفيتية على نحو يتماشى مع ضرورات الإصلاح الإقتصادى والإنفراج الديمقراطى والإنطلاق الوجدانى واستعادة روح التآخى بين الشعوب والأمم السوفيتية ، وما يخدم أسمى أهداف الدولة السوفيتية ـ ألا وهو الحفاظ على السلام العالمى وحماية الجنس البشرى من المخاطر التى باتت تهدد وجوده نفسه . وإذا كانت القيادة الجورباتشوفية قد أثبتت ـ حتى الآن ـ أنها على درجة عالية من الفاعلية بحيث تمكنت من تغيير أشخاص غالبية القيادات العليا فى الحزب والدولة بوسائل سلمية ، وانتزعت كثيراً من المسئولياتالتنفيذية من أيدى حملة أسوأ ما فى التركة الستالينية إلى دعاة الإصلاح ـ فإننا نرى أن الجهاز الإيديولوجى « السوفييتى مايزال قاصراً ، مايزال غير قادر على مسايرة التطورات التاريخية المتلاحقة . ومن ثم ، ليس بمستغرب أن يقف الإيديولوجيون السوفييت ، فى مجملهم موقفاً سلبيا إزاء صيحة الاعلام الغربى بانتهاء عصر الإيديولوجيا بل إن بعضهم بدأ ينساق فى هذا الإتجاه ، بينما فضل الكثيرون الصمت والإنتظار

فقد تعود غالبيتهم على التشبث باللافتات وترديد الشعارات وإلقاء خطب المناسبات واستظهار الكلمات المعتمدة فى المناسبات والندوات والإذاعات ... مع التمرغ البليد فى لذائذ الإمتيازات وأبهة السلطة مع انتظار التوجيهات ... واختزلت الشيوعية (والإشتراكية) عندهم لتكون هى الصيغة الشيوعية السوفيتية الستالينية الضامرة ، التى ابتذلت وانحدرت إلى الهاوية فى زمن الفساد البرجنييفى .

محاولة الإصلاح الخروشوفية

ومن المعروف أن جورباتشوف ليس إلا آخر الإصلاحيين الكبار ، وأهمهم . من المفيد، لكى نزداد فهماً للأوضاع الراهنة ، أن نوجز أكبر تجربة إصلاحية سابقة ، تلك التى قادها الرئيس السوفيتى الأسبق ، نيكيتاخروشوف.

فى السنوات العشر (١٩٥٤ ـ ١٩٦٤) التى أعقبت وفاة ستالين ، حاول خروشوف أن يطلق العقل والوجدان الشيوعى من إسار الستالينية ، ولكن المحاولة فى جملتها لم تنجح ، ولم تسفر إلا عن خلخلة طفيفة على السطح ، ولم تصمد أمام جحافل من المنتسبين للشيوعية والإشتراكية والتقدمية ، من عقائديين جامدى الفكر ناضبى الخيال ، إلى بيروقراطيين فاسدين مستفيدين من الإمتيازات القيادية الحزبية ، بالإضافة إلى قوى التخريب والتسلل والتشويش من كل نوع وفى كل البلاد .. فى داخل «المعسكر» الإشتراكى وخارجه .

وفى تقديرنا أن فشل خروشوف يرجع إلى أنه تناول معضلات القارة السوفيتية ومآزق الحركة الشيوعية العالمية بمنظور سياسى اقتصادى أساساً ، ولم ينتبه إلى ضرورة خوض معركة إصلاح إيديولوجى شامل . ضعف خروشوف أما الإرهاب الفكرى الذى وصفه بالمراجعة ، واعتبر المراجعة جريمة بينما كانت

الضرورة لا تستوجب المراجعة الخجولة التى قادها خروشوف فحسب ، إنما كانت تتطلب مراجعة جسورة لا تقف فى منتصف الطريق . واستسهل الرجل استمرار إغلاق المنابع الإيديولوجية (الدينية والقومية والليبرالية) ، فلم يتبق له ـ فى مجال التعبئة الإيديولوجية التى لاغنى عنها لأى مجتمع ـ إلا مواصلة لوك الشعارات والصيغ العجفاء الموروثة التى لم تصلح بعض المظاهر اللفظية والمراجعات الجزئية فى إكسابها حياة جديدة . كذلك استمر خروشوف يعالج مشكلات السياسة العالمية بمنظور الدولة الكبرى فى إطار العالم الثنائى القطبين.. واستمر الرجل متعلقاً تعلقاً مرضياً بالوهم الإيدلويوجى الستالينى الأكبر ، وهو أن القضاء على الهيمنة الرأسمالية الأمريكية أصبح وشيكاً ، أصبح على مبعدة بضعة أعوام فحسب، بفضل التفوق (النظرى الإيديولوجى !!) للقطب الإشتراكى السوفيتى ؟!!!

هذا العجز عن النهوض بإصلاح إيديولوجى شامل ، بل العجز عن إدراك ضرورته أصلاً، وماترتب عليه من قصور فى منهج علاج معضلات السياسة العالمية ومشكلات الأوضاع الداخلية، جعل كثيراً من الممارسات السياسية لخروشوف ، وغالبية اختياراته الإستراتيجية ، تفتقر إلى القدر اللازم من الإتساق والإستقامة والتصميم .. ومن ثم فقدت حركته الإصلاحية قوتها الدافعة، ولم تلبث أن انهارت تحت ضغوط الائتلاف الخبيث (غير المعلن) بين القوى المناوئة للإشتراكية العالمية وقوى البيروقراطية السوفيتية (البرجنيفية) فى الداخل ، التى ظلت تنافقه وتتربص به ، إلى أن تمكنت منه ، وانتكست بالإتحاد السوفيتى إلى أن أوصلته إلى ما وصل إليه وفيما يلى بعضاً من أهم الأمثلة على ضعف المنهج الخروشوفى :

* حاول خروشوف أن يطلق حرية نقد المنهج الستالينى الجامد وممارساته الفظة

.. إلا أنه حجم هذه « الحرية » وحصرها فى الدائرة الضيقة للقيادات العليا للحزب ، وقيدها فى الإطر الجامدة لقواعد ماعرف باسم « المركزية الديمقراطية داخل التنظيم الحزبى » ، التى لم تكن إلا لافتة إيديولوجية مضللة تخفى أعتى أشكال الشمولية ، فلم يسمح بالنقد إلا بالقدر الذى مكن خروشوف من استبعاد طاقم قيادى وإحلال طاقم آخر مكانه يدين له بالولاء ويظهر الإقتناع بأفكار جديدة .

* حاول خروشوف أن يحيى التقاليد اللينينية فى الإلتزام بالدفاع عن حركات التحرر الوطنى وحق تقدير المصير للشعوب والأمم التى كانت مستعمرات للدول الإمبريالية الرأسمالية ، واتخذ مواقف مشهودة نذكرها له بصفة خاصة فى دعم مصر ومساندتها فى مواجهة العدوان الثلاثى (١٩٥٦) . إلا أن مؤقفه كان على النقيض من ذلك تجاه حركات شعوب شرق أوروبا التى كانت تحت الإحتلال السوفيتى ، وواجه ماتفجر منها بالحديد والنار (المجر ـ ١٩٥٦) ، بل إنه استمفى تجاهل تطلعات شعوب الجمهوريات السوفيتية ، خاصة الآسيوية ، لتحقيق قدر أوفى من الإستقلال الذاتى تجاه السلطة المركزية فى موسكو .

* أعلى خروشوف شعار التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة المختلفة ، واتخذ خطوات حثيثة من أجل تخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب .. إلا أن حصيلة عشر سنوات من زعامته كانت مزيداً من سباق التسلح ، حيث استدرجته البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) لوضع العالم فى كابوس «توازن الرعب النووى » واتسمت مواقفه تجاه التحرش العدوانى للغرب الإمبريالى بأنها ـ فى جملتها ـ كانت ردود فعل تتسم هى الأخرى بطابع عدوانى واضح .

* تحدث خرشوف عن حرية الأحزاب الشيوعية والتقدمية « الشقيقة » فى

اختيار سياساتها أو طرقها الخاصة لتحقيق الإشتراكية فى بلادها .. إلا أن غالبية مواقفه العملية كانت تؤكد تمسكه بفكرة الحزب القائد والتجربة السوفيتية المثال ، ومن ثم ـ الهيمنة والوصاية التى مارسها الإتحاد السوفتيى على بلاد أوروبا الشرقية ، وإذ رفضت القيادة الصينية هذه الهيمنة سارت العلاقات بين القوتين الشيوعيتين الكبيرتين فى طريق القطيعة والخصومة ، وتحطمت الآمال التى عقدت على وجود معسكر عالمى اشتراكى قادر على مواجهة التحدى الأمريكى .

* فى زمان خروشوف ، بدأ الكلام ـ وإن يكن بحذر ـ عن ضرورة إطلاق حرية العقيدة الدينية ، والحريات السياسية والمدنية . ولكن الكلام ـ مجرد الكلام ـ سرعان ماتوقف ، ولم تتخذ أية خطوات جدية فى سبيل إجراء المصالحة ـ التى كانت قد تأخرت كثيراً ـ بين الدولة السوفيتية والكنيسة ، ناهينا عن الإستبعاد التام لمجرد التفكير فى إطلاق حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف .. إلخ ..

* فيما يتحلق بدعم حركات التحرر الوطنى والتقدم الإجتماعى فى البلاد التى كانت مستعمرات ومناطق نفوذ للإستعمار القديم (البريطانى والفرنسى .. إلخ) لم تهتد الشيوعية السوفيتية (فى عهد خروشوف) إلى وسيلة لإطلاق الطاقة الوحيدة الكفيلة بتحقيق التحرر والتقدم على المدى الإستراتيجى ، ونعنى طاقة الجماهير الشعبية تحت قيادات حقيقية (غير حكومية) من صفوفها . وتعجلا للنتائج استسهل خروشوف التعامل مع نوعين من القادة :

ــ حكام ورجال دولة من نوع عبدالناصر وسوكارنو وسيكوتورى ... إلخ .. يرفعون شعارات نضالية ويتخذون مواقف تحررية ويحاولون تنفيذ برامج وطنية تهدف إلى تصفية الإستعمار وإرساء دعائم أشكال من العدالة الإجتماعية ، ويصل الكثير منهم إلى رفع شعارات يسارية وتبنى برامج اشتراكية ... بينما

هم ، فى نفس الوقت ـ يوكلون تنفيذ هذه البرامج إلى أجهزة حكومية وأمنية موروث أغلبها عن عهد السيطرة الإستعمارية القديمة ، ومُحدّث بعضها تحت الإشراف الأمريكى (!!!) ومعروف أنهم كانوا يعادون الديموقراطية ولا يعترفون بشىء اسمه حقوق الإنسان أو الحريات المدنية ، وينفذون المخطط العالمى لما سمى « مكافحة الشيوعية » الذى رسمته أمريكا وطبقته الأجهزة الأمنية بكل الهمجية التى عرفها العالم الثالث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. وفى هذا المعترك الذى تداخلت فيه الخطوط ، والتبست الأمور ، واختلط الحابل بالنابل... كانت « ردة حركة التحرر الوطنى العالمية » نزهة سهلة تبخترت فيها المخابرات الأمريكية ورجالاتها فى طوال العالم الثالث وعرضه ، منذ أواسط الستينات حتى اليوم... وكان هؤلاء القادة أول ضحاياها ...

ـ النوع الثانى من القادة الذين استسهلت القيادة السوفيتية التعامل معهم هم من يمكن تسميتهم «فلول الأممية الشيوعية الثالثة » ، ونعنى بهم قادة تلك التنظيمات أو الأحزاب الشيوعية فى عدد من بلاد العالم الثالث الذين كانوا يسلمون (أحيانا نفاقاً) بفكرة الدور القيادى للحزب الشيوعى السوفيتى فى الحركة الشيوعية العالمية . والخط العام لهؤلاء القادة فى تدهور مستمر نتيجة لعوامل عديدة أهمها الموقف الذيلى الذى كانوا يتخذونه خلف الحزب السوفيتى، وهو نفسه مريض تنتقل أدواؤه الإيديولوجية ورذائله البيروقراطية إلى أتباعه والمستفيدين من الإلتحاق به . وفى عالمنا العربى بصفة خاصة فإن اليهودية (والصهيونية) العالمية تمكنت من اختراق هذه النوعية من التنظيمات والأحزاب ، وتمكنت من التحكم فى إتصالاتها الدولية ومواردها المادية .. مع ما يتضمنه هذا الإختراق من دلالات وما يترتب عليه من تدعايات (وهذا موضوع طويل يحتاج إلى دراسات خاصة) . فقد تحولت غالبية هذه التشكيلات (فى

أحسن الأحوال) إلى احتياطى للقوى المحافظة المحلية والعالمية ، وأصبحت أداة إجهاض لأية محاولات جادة لخلق تنظيمات أو أحزاب محلية تعبىء طلائع التحديث والتحرير والحرية والديمقراطية

* فتح خروشوف مجال الإجتهاد أمام جيل من جديد من الإقتصاديين والمخططين ليتحدثوا عن ضرورة أخذ آليات السوق فى الإعتبار ، وتنشيط أشكال من المنافسة والحوافز ، والإستجابة للإحتياجات الإستلاكية ، وإعادة الحياة لأشكال من الملكية الإنتاجية الصغيرة خاصة فى الريف كما فى الصناعات والخدمات الحرفية .. إلا أن المحاولات التى بذلت لوضع هذه الأفكار فى التطبيق من أجل الإنهاض الإقتصادى باءت بالفشل ، واستمر التخطيط المركزى والتحكم البيروقراطى يفعلان فعلهما فى تعويق محاولات الإصلاح وتخريبها..

* تصور خروشوف ، بمجرد أن تمكن من إزاحة بعض القيادات ورفع بعض الشعارات واتخاذ بعض الإجراءات العلوية ... تصور أن الطريق أصبح مفتوحا لكى تحقق الإشتراكية انتصاراً سريعاً ونهائياً على الرأسمالية على النطاق العالمى ... واستكمالاً للوهم ، قامر خروشوف مقامرة غير محسوبة بالمرة حين أعلن أن الإتحاد السوفيتى ـ خلال عقد الستينات ، وبفضل « النهج » الذى اختطه ـ سيتمكن من التفوق على الولايات المتحدة اقتصاديا وقال إن هكذا تثبت الإشتراكية تفوقها على الرأسمالية ، وقدرتها على إنهاء النظام الرأسمالى بالوسائل السلمية

لسنا بحاجة إلى تأكيد أن خطوط السياسة الداخلية والخارجية السوفيتية الداخلية والخارجية تحت قيادة جورباتشوف أكثر استقامة مما كانت فى أى وقت ، والمواقف العملية أكثر اتساقاً مع الأقوال ، والإختيارات الإستراتيجية لجورباتشوف هى التى تقفز بالعالم ـ فعلا ـ إلى مابعد عصر

فى تجاهل تطلعات شعوب الجمهوريات السوفيتية ، خاصة الآسيوية ، لتحقيق قدر أوفى من الإستقلال الذاتى تجاه السلطة المركزية فى موسكو .

* أعلى خروشوف شعار التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة المختلفة ، واتخذ خطوات حثيثة من أجل تخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب .. إلا أن حصيلة عشر سنوات من زعامته كانت مزيداً من سباق التسلح ، حيث استدرجته البنتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) لوضع العالم فى كابوس « توازن الرعب النووى » واتسمت مواقفه تجاه التحرش العدوانى للغرب الإمبريالى بأنها ـ فى جملتها ـ كانت ردود فعل تتسم هى الأخرى بطابع عدوانى واضح .

* تحدث خرشوف عن حرية الأحزاب الشيوعية والتقدمية « الشقيقة » فى اختيار سياساتها أو طرقها الخاصة لتحقيق الإشتراكية فى بلادها .. إلا أن غالبية مواقفه العملية كانت تؤكد تمسكه بفكرة الحزب القائد والتجربة السوفيتية المثال ، ومن ثم ـ الهيمنة والوصاية التى مارسها الإتحاد السوفتيى على بلاد أوروبا الشرقية ، وإذ رفضت القيادة الصينية هذه الهيمنة سارت العلاقات بين القوتين الشيوعيتين الكبرتين فى طريق القطيعة والخصومة ، وتحطمت الآمال التى عقدت على وجود معسكر عالمى اشتراكى قادر على مواجهة التحدى الأمريكى .

* فى زمان خرشوف ، بدأ الكلام ـ وإن يكن بحذر ـ عن ضرورة إطلاق حرية العقيدة الدينية ، والحريات السياسية والمدنية . ولكن الكلام ـ مجرد الكلام ـ سرعان ماتوقف ، ولم تتخذ أية خطوات جدية فى سبيل إجراء المصالحة ـ التى كانت قد تأخرت كثيراً ـ بين الدولة السوفيتية والكنيسة ، ناهينا عن الإستبعاد التام لمجرد التفكير فى إطلاق حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف .. إلخ ..

ـ فيما يتعلق بدعم حركات التحرر الوطنى والتقدم الإجتماعى فى البلاد التى كانت مستعمرات ومناطق نفوذ للإستعمار القديم (البريطانى والفرنسى .. إلخ ..) لم تهتد الشيوعية السوفيتية (فى عهد خروشوف) إلى وسيلة لإطلاق الطاقة الوحيدة الكفيلة بتحقيق التحرر والتقدم على المدى الإستراتيجى ، ونعنى طاقة الجماهير الشعبية تحت قيادات حقيقية (غير حكومية) من صفوفها . وتعجلا للنتائج استسهل خروشوف التعامل مع نوعين من القادة :

* حكام ورجال دولة من نوع عبدالناصر وسوكارنو وسيكوتورى ... إلخ .. يرفعون شعارات نضالية ويتخذون مواقف تحررية ويحاولون تنفيذ برامج وطنية تهدف إلى تصفية الإستعماروإرساء دعائم أشكال من العدالة الإجتماعية ، ويصل الكثير منهم إلى رفع شعارات يسارية وتبنى برامج اشتراكية ... بينما هم ، فى نفس الوقت ـ يوكلون تنفيذ هذه البرامج إلى أجهزة حكومية وأمنية موروث أغلبها عن عهد السيطرة الإستعمارية القديم ، ومحدث بعضها تحت الإشراف الأمريكى (!!!) ومعروف أنهم كانوا يعادون الديموقراطية ولا يعترفون بشىء اسمه حقوق الإنسان أو الحريات المدنية ، وينقذون المخطط العلمى لما سمى « مكافحة الشيوعية » الذى رسمته أمريكا وطبقته الأجهزة الأمنية بكل الهمجية التى عرفها العالم الثالث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. وفى هذا المعترك الذى تداخلت فيه الخطوط ، والتبست الأمور ، واختلط الحابل بالنابل... كانت « ردة حركة التحرر الوطنى العالمية » نزهة سهلة تبخترت فيها المخابرات الأمريكية ورجالاتها فى طوال العالم الثالث وعرضه ، منذ أواسط الستينات حتى اليوم... وكان هؤلاء القادة أول ضحاياها ...

* النوع الثانى من القادة الذين استسهلت القيادة السوفيتية التعامل معهم هم من يمكن تسميتهم «فلول الأهمية الشيوعية الثالثة » ، ونعنى بهم قادة تلك

التنظيمات أو الأحزاب الشيوعية فى عدد من بلاد العالم الثالث الذين كانوا يسلمون (أحيانا نفاقاً) بفكرة الدور القيادى للحزب الشيوعى السوفيتى فى الحركة الشيوعية العالمية . والخط العام لهؤلاء القادة فى تدهور مستمر نتيجة لعوامل عديدة أهمها الموقف الذيلى الذى كانوا يتخذونه خلف الحزب السوفيتى ، وهو نفسه مريض تنتقل أدواؤه الإيديولوجية ورزائله البيروقراطية إلى أتباعه والمستفيدين من الإلتحاق به . وفى عالمنا العربى بصفة خاصة فإن اليهودية (والصهيونية) العالمية تمكنت من اختراق هذه النوعية من التنظيمات والأحزاب ، وتمكنت من التحكم فى إتصالاتها الدولية ومواردها المادية .. مع ما يتضمنه هذا الإختراق من دلالات وما يترتب عليه من تدعايات (وهذا موضوع طويل يحتاج إلى دراسات خاصة) . فقد تحولت غالبية هذه التشكيلات (فى أحسن الأحوال) إلى احتياطى للقوى المحافظة المحلية والعالمية ، وأصبحت أداة إجهاض لأية محاولات جادة لخلق تنظيمات أو أحزاب محلية تعبىء طلائع التحديث والتحرير والحرية والديمقراطية

ـ فتح خرشوف مجال الإجتهاد أمام جيل من جديد من الإقتصاديين والمخططين ليتحدثوا عن ضرورة أخذ آليات اسوق فى الإعتبار ، وتنشيط أشكال من المنافسة والحوافز ، والإستجابة للإحتياجات الإستلاكية ، وإعادة الحياة لأشكال من الملكية الإنتاجية الصغيرة خاصة فى الريف كما فى الصناعات والخدمات الحرفية .. إلا أن المحاولات التى بذلت لوضع هذه الأفكار فى التطبيق من أجل الإنهاض الإقتصادى با ءت بالفشل ، واستمر التخطيس المركزى والتحكم البيروقراطى يفعلان فعلهما فى تعويق محاولات الإصلاح وتخريبها .

ـ تصور خروشوف ، بمجرد أن تمكن من إزاحة بعض القيادات ورفع بعض الشعارات واتخاذ بعض الإجراءات العلوية ... تصور أن الطريق أصبح مفتوحا

لكى تحقق الإشتراكية انتصاراً سريعاً ونهائياً على الرأسمالية على النطاق العالمى ... واستكمالاً للوهم ، قامر خروشوف مقامرة غير محسوبة بالمرة حتى أعلن أن الإتحاد السوفيتى ـ خلال عقد الستينات ، وبفضل « النهج » الذى اختطه ـ سيتمكن من التفوق على الولايات المتحدة اقتصاديا وقال إن هكذا تثبت الإشتراكية تفوقها على الرأسمالية ، وقدرتها على إنهاء النظام الرأسمالى بالوسائل السلمية .

لسنا بحاجة إلى تأكيد أن خطوط السياسة الداخلية والخارجية السوفيتية تحت قيادة جورباتشوف أكثر استقامة مما كانت فى أى وقت ، والمواقف العملية أكثر اتساقاً مع الأقوال ، والاختيارات الاستراتيجية لجوربا تشوف هى التى تقفز بالعالم - فعلاً إلى ما بعد عصر العالم الثنائى القطبين . أما عن الجانب الإيديولوجى ، فكيفينا أن نذكر مثلا واحداً : فى معرض الحديث عن مشروعه للإصلاح الإقتصادى ، يحذر جورباتشوف الشعوب السوفيتية قائلا (ما معناه) : ... يجب ألانعود إلى الأوهام القائلة بأننا نستطيع أن نصل إلى المستوى الأمريكى للإستهلاك ، هذا لن يحدث ، فموارد الكوكب لا تسمح .

هذه أول مرة يدعو فيها زعيم سوفيتى شعوب بلاده لأن تأخذ فى الإعتبار موارد كوكب الأرض عند التفكير فى مواجهة مشكلاتها الإقتصادية . لابد وأن تكون وراء هذه الدعوة رؤية واضحة ـ ليس فقط للطبيعة الإمبريالية للرأسمالية الصناعية المتقدمة ـ وإنما أيضاً للمشكلات البيئية للكوكب . هذه الدعوة تتضمن تنبيهاً للبلاد الصناعية المتقدمة أن تعيد النظر فى الطريقة التى تدار بها شئون الإقتصاد العالمى على أساس أن موارد كوكب الأرض وحدة متكاملة تمتلكها شعوب كوكب الأرض فى منظومة إنسانية متكاملة .

هنا بعض عناصر تركيبة إيديولوجية جديدة فى سبيلها للتكوين .

* * *

لقد كان جوزيف ستالين هو الذى رسخ الأسس الإيديولوجية للدولة السوفيتية ، وإن يكن بمنهج استبدادى جامد صادر محاولات التطوير وعاند نواميس التغيير . وجاء نيكيتاخروشوف ينقد الستالينية ويحاول إصلاح الأبنية الإقتصادية والمؤسسات السياسية . ولكن الإحجام عن إجراء مراجعة

شاملة للأسس الإيديولوجية كان من بين أهم الأسباب التى أجهضت المحاولة .

وبعد أن انتكست محاولة خروشوف على أيدى برجنييف وزمرته الفاسدة الكئيبة، دخل الإتحاد السوفيتى فتردة تدهور خطرة استمرت أكثر من عشرين عاماً ثقيلة ومظلمة .. إلى جاءت المحاولة الراهنة التى يقودها ميخائيل جورباتشوف . وفتحت البريسترويكا والجلاسنوست كل الأبواب ، ليس فقط لتلمس طرق الإصلاح ، وإنما أيضاً لإجراء مراجعة شاملة على كافة الجبها ، وضعوط الجمود والتخلف كانت هائلة ، فإن التغييرات ما إن بدأت حتى تسارعت ، والتداعيات تلاحقت .. وتداخلت كثير من الخطوط ، واختلطت الرؤى .. واتسم المسار ، ومايزال ، بقدر هائل من التعثر والإرتباك .

ولأن التجارب القاسية علمت الكثيرين أن يكفوا عن اللعب بفكرة «الحتمية التاريخية» ، فإن السؤال الذى أصبح يؤرق غالبية المناضلين من أجل الإشتراكية (على اختلاف تسمياتهم وتشكيلاتهم وتنويعاتهم) ـ السؤال هو : إلى أى مستقبل ستفضى هذه البريستروكيا ؟

(*)

(*) انتهينا من كتابة هذا الفصل قبل بعضة أيام من بدء القصف الجوى للعراق والكويت ، الذى مهد لإجتاح أراضى البلدين فى تلك الحرب المشئومة.

.... لقد تطورت الأحداث ، فى منطقتنا وفى العالم ، على نحو أسوأ كثيراً وأشد إيلاماً مما كان يتصور الإنسان . وقد حرصنا على كتابة تاريخ كل مقال لكى يتابع القارىء تأثر أسلوب الكتابة بهذه التطورات .

أصـــول الإيديولوجـــية الأمريكيـــة

أو « المحافظية الغربية الحديثة

الحديث عن انتهاء الإيديولوجيات نتيجة مباشرة لإنتهاء استقطاب العالم في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى معسكرين : شرقي شيوعي تحت قيادة الإتحاد السوفيتي ، وغربي رأسمالي تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد انتهى هذ الإستقطاب ، بكل المقاييس ، في غير صالح السوفييت . وتدل كل الظواهر على أن العالم لم يعد له سوى قطب واحد ، هو واشنطن . بل يذهب البعض إلى أن موسكو نفسها أصبحت واحدة من العواصم التي تدور في الفلك الأمريكي ، وأن النظام العالمي الجديد الذي بشّروا به ليس إلا توسعاً للإمبراطورية الأمريكية ، الواحدة الأعظم ، لتصبح هي كوكب الأرض بأسرة شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً .

وفي منازل آلاف الملايين من سكان الأرض ، إينما وجدوا في المدن والقرى ، في الحضر والبوادي ، في السهول الخضراء والصحراوات الجرداء، في المناطق الإستوائية والمناطق القطبية وما بينها ... تفرج بشر متضائلين ـ على شاشات تليفريوناتهم الملحقة بالشبكات الأمريكية ـ تفرجوا على المهرجانات التي نظمت إبتهاجاً بمولد الكوكب الأمريكي المبهر ، وشاهدوا الإحتفالات التي قرع فيها المنتصرون الأنخاب وتبادلوا التهاني بتفوقهم السياسي وقفواتهم الإقتصادية . ولتأكيد الجبروت العسكري القادر على إلحاق الدمار الشامل بكل من يساوره شك في قدرات السادة على تسيير الكوكب وحدهم بلا شريك أو معارض ، فإن الرئيس بوش رأى أن تكون الألعاب النارية التي تزين السماء

فى فجر العصر الأمريكى الجديد ليست ككل الألعاب الشكلية التى سبق أن أطلقها الناس فى كل ماعرفوا من موالد ومهرجانات ، إنما هى نيران حرب حقيقية تزهو على النيران الذرية التى صبها الرئيس ترومان على أرض اليابان ليدشن العصر النصف أمريكى منذ حوالى نصف قرن . ومن غرائب الصدف ، أو ربما لإثبات أن المهرجان الذى يديره الرئيس بوش فيه إعجاز فوق إدراك البشر ، أن نيران المولد الأمريكى الراهن تنصب فوق أرض منطقتنا الفريدة على خريطة الكوكب .. أليست منطقتنا هذه هى مهد الحضارات ومهبط الرسالات ؟! أليست ، وهذا هو المهم ، هى المنطقة التى وقع عليها اختيار الصهيونيين ليقيموا عليها وطناً لشعب الله المختار ؟ وهل نستبعد أن تحل رموز هذا الإعجاز بصدور فتاوى تقول إن هذه النيران الأمريكية هى جزء من عملية ربانية لتطهير منطقتنا من شعوبنا غير المختارة ، ليحل محلها الشعب المختار ، ويأخذ المكان الموعود فى الكوكب الأمريكى المبهر ؟! .. وعلى مزامير الإحتفالات ودقات طبول الحرب ، يرقص أغنياء العالم ووجهاؤه .. يقود العروض المعربدة مشاهير حملة الأقلام ونجوم الإعلام ومستثمرو الأمخاخ ومحترفو الفتاوى .. ولم يتخلف عن الزفة - طبعاً - جمهيرة الوجهاء والمشاهير والنجوم ومحترفو الفتاوى فى بلادنا المستباحة وأممنا غير المختارة ، محتفظين بمكانهم المعهود فى أسفل الدرج .

وكان أحرى بالسادة الأمريكان أن يأمروا بإقامة مزيد من المهرجانات ابتهاجاً بانتصار الإيديولوجية الأمريكية .. كان أحرى بهم أن ينتهزوا فرصة الإكتساح الإعلامى ليعلنوا أن ما ظهر من تفوقهم فى المجالات السياسية والإقتصادية ، وقدراتهم الحربية التدميرية ، وهيمنتهم المطلقة على المنظمات الدولية .. كان أحرى بهم أن ينتهزوا الفرصة ليعلنوا أن هذا كله دليل ، مابعده

دليل ، على تفوق الإيديولوجية الأمريكية .. ولكن ، من العجيب حقاً أننا نراهم يفضلون أن يعتبروا أن الإيديولوجيات كلها قد انتهت ، ويعلنون ألا مكان للإيديولوجيات فى العصر الأمريكى الجديد .. بل يكادون أن يحرموها ويعتبرون من يعتنق أية إيديولوجية خارجاً على القانون الدولى لأنه يمارس نشاطاً لا يتوافق مع مايراه السادة .. وهم يعلنون ، بكل اللغات فى كل مكان وعلى مدار ساعات الليل والنهار .

- أن العلاقات بين الدول والبلاد والجماعات أساسها الوحيد هو المصالح (المادية طبعا) ،

- والعامل الحاسم فى تحديد مسارها وتقرير نتائجها هى علاقات القوى (العسكرية فى التحليل الأخير) ،

- ومعيار الإختيار هو النجاح .. أى النجاح فى تحقيق أكبر مكاسب مادية باستخدام القوة العسكرية أو التهديد باستخدامها .

المصالح - علاقات القوى - النجاح

هذه هى النواميس الثلاثة للعلاقات بين الأمم والجماعات البشرية فى العصر الأمريكى الجديد . ولكن هذه النواميس لا تكتمل إلا بملحق يهمنا بصفة خاصة .

ذلك أنه - لما كان حظ الدول الصغيرة (أو) والجماعات المستضعفة من القوة ضئيلاً أو معدوماً ، فليس أمام أولى الأمر فيها إلا أن يتبعوا الأقوى ويتعلقوا بعجلته الحربية .. هكذا يمكن أن تكون فرصتهم أكبر أن ينجوا بجلودهم فى المعترك ، وربما يجود عليهم السادة بفتات من المغانم أو بفضلة من اللحم المنهوش .

ولكن ، وهنا تحذير هام ، إن حرمهم السادة من أية صدقة (لأى سبب

يرونه) ، بل إن سلبهم السادة أرواحهم نفسها ، فعلى الأتباع أن يعتبروا ذلك من طبائع الأمور .. نتيجة طبيعية للتسليم بالنوامس الأساسية الثلاثة .. فالسادة دائماً على حق . القوى دائماً على حق . وصاحب القوة الأكبر والمصالح الأعظم هو صاحب الحق الأول .

هكذا يحسم الإيديولوجيون الأمريكيون المبشرون بالنظام العالمى الجديد، يحسمون النقاش حول الإيديولوجية ، يرون فى هذه النواميس الثلاث نهاية لكل الإيديولوجيات . وكفى الله السادة والأتباع شر البحث فى المنابع الدينية والقومية والليبرالية (والإشتراكية طبعاً) . .. ولامعنى للإجتهاد الفكرى فى هذا الإتجاه .. فلم يعد للفكر فى العالم الأمريكى وظيفة . وعلى المفكرين والإيديولوجيين أن يبحثوا عن عمل مفيد وناجح فى مكاتب الخبرة ودراسات الجدوى .

وفى هذا يخطىء الإيديولوجيون الأمريكيون خطأ كبيراً ، ويغالطون مغالطة أكبر . يخطئون حين يتصورون أن الجماعة البشرية (على كافة مستوياتها ، وبجميع دوائرها المحلية والقومية والعالمية) يمكن أن تعيش بغير إيديولوجية . وقد سبق أن بينا ، وأكدنا ، أن الإيديولوجية جزء من الحالة الإنسانية ، كما هى ضرورة اجتماعية وسياسية ووجدانية وحضارية . ويخطئون حين يتصورون أن القوة العسكرية الأمريكية ، مهما بلغت قوتها التدميرية ، قادرة على إيقاف اجتهادات الفكر البشرى للتطوير والتجديد الإيديولوجى ، وتحقيق الإشباع الإيديولوجى للإنسان .. إلا فى حالة واحدة ، هى « النجاح » فى القضاء على الحياة الإنسانية جملة من على ظهر هذا الكوكب .

أما المغالطة فتتلخص فى محاولة إيهام الناس أن الوصفة الأمريكية الثلاثية « المصالح ـ علاقات القوى ـ النجاح » هى وصفة لاإيديولوجية .

الحقيقة أنها وصفة إيديولوجية بالتأكيد . بل هى إيديولوجية قديمة قدم التاريخ ، منذ وجد المجتمع البشرى ووجد فيه أقوياء يستأثرون بالثروة والجاه والإمتيازات ، فضلاً عن الأسلحة والعسكر لقمع الضعفاء . وعلى مر التاريخ يبغض الأقوياء حديث المبادىء والأخلاق (أو ما نسميه فى سياقنا هذا الحديث الإيديولوجى) ، ولكنهم يستخدمونه أحياناً ـ مضطرين ـ تحت ضغوط ثورات المستضعفين وانتفاضاتهم ، ولمواجهة تحدى الطلائع المفكرة التى تتصدى لقيادة تلك الثورات والإنتفاضات (أو سَمِّها ما شئت) .

على مر التاريخ ، يفضل الأقوياء وأصحاب الإمتيازات ، يفضلون التعامل بمنطق المصالح الغالبة والقوة الضاربة ، وإن اضطروا إلى تبرير إيديولوجى فإنهم غالباً ما يكتفون بتأكيد أنهم محافظون .

والشخص المحافظة والموقف المحافظ ، واسم الصفة « المحافظية » .. هذه ليست مجرد كلمات بسيطة أو صفات عابرة ، ولكنها عناوين على إيديولوجية متكاملة .. قديمة متجددة .. إنها أقدم الإيديولوجيات جميعاً ، وقدراتها على التجدّد غير محدودة . ومايهمنا فى مقالنا هذا ـ بصفة خاصة ـ هو التعرف على « المحافظية الغربية » الحديثة .

وكلمة « محافظية » ليست مألوفة فى أدبياتنا الفكرية والسياسية فى العالم العربى ، هى ترجمة لكلمة Conservatism . وهى اسم صفة لحالة كون الموصوف ـ موقفاً أو شخصا ـ محافظاً . وفى محاولة التعريف بالمحافظية ، اعتمدنا على المرجعين اللذين يعتبران أهم خزائن نفائس اللغة والفكر الأنجلو ساكسونى الحديث ، هما دائرة المعارف البريطانية (التى أصبحت فى حَوْزة الأمريكيين فى زمانهم هذا) وقاموس ويبستر الأمريكى العالمى .

فى تعريف موجز : المحافظية فلسفة سياسية تقوم على

الإلتزام القوى بالتقاليد ، والمحافظة ، على الأوضاع القائمة عامة والبناء الإجتماعى خاصة ، وحماية النظم والمؤسسات ، كما هى ضد محاولات التغيير .

ويضيف « وبستر » بالحرف الواحد إن المحافظية السياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية هى « الفلسفة الأكثر تعبيراً عن مواقف دوائر المال والأعمال ، فى مقاومتها القوية ووقوفها الصارم ضد محاولات التجديد » .

وتؤرخ دائرة المعارف البريطانية لبداية المحافظية الغربية الحديثة، كفكر سياسى ممنهج بمقال كتبه إدموند بورك عام ١٧٩٠ ، أى بعد قيام الثورة الفرنسية بعام واحد ، عبر فيه بورك عن ردود فعل الدوائر البريطانية الحاكمة التى أعقبت نشوب الثورة . والمقال تحت عنوان : « تأملات حول الثورة فى فرنسا » .

كانت الثورة على النظام الملكى وأسرة البوربون الحاكمة قد تفجرت فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ ، فى العاصمة باريس ، بتحطيم سجن الباستيل وإطلاق سراح المسجونين السياسيين وآخرين من ضحايا الحكم المطلق ومعارضيه . وفى يوم وليلة اشتعلت فرنسا كلها بالثورة التى عصفت بقصور الإقطاعيين وحكمهم وسجونهم فى سائر الأقاليم والمقاطعات الفرنسية . وتشكلت اللجان والمجالس الثورية فى كل مكان ، وزحفت مواكب الثوار نحو مواقع السلطة تحمل رايات الحرية والإخاء والمساواة . وفى قيادة الثورة ، تغلب الجناح الراديكالى (أى المتشدد) ، وأمسك حزب « الجبل » تحت زعامة ماكسيميليان روبسبير ، بزمام الأحداث مستبعداً القيادات الوسطية (حزب الجيروند) ، التى كانت ترى الأكتفاء بالوصول إلى اتفاق وسط ، يعترف بحقوق الطبقة المتوسطة ومكان فى

السلطة إلى جانب من يقبل الإتفاق من بقايا النظام الملكى القديم .. وتصاعد مد الثورة لتصبح عاصفة عاتية تطيح بكل رموز الماضى المظلم . وبنفس السرعة امتدت أشعاعاتها لتصل إلى غالبية البلاد الأوروبية التى كانت حبلى بالثورة على بقايا العصور المظلمة ، ولتكون ملهماً للثوار ونموذجاً يحتذونه للإطاحة بالنظم الملكية الإستبدادية السائدة . وعلى الجانب الآخر أعلنت الرجعية الأوروبية ، الملوك والأباطرة والنبلاء ورجال الكهنوت الكنسى ، أعلنوا حالة الإستنفار القصوى ، وشكلوا تحالفاً غير مقدس يستهدف تصفية فرنسا الثورة، وشنوا سلسلة من المناوشات والمعارك العسكرية على طول الحدود ... ولكن القيادات الثورية تمكنت من تعبئة الطاقات الوطنية للأمة الفرنسية ، وصدت جيوشاً تبلغ أضعافها عدداً وعدة .. وحققت معجزات بطولية لاتتحقق إلا فى لحظات نادرة فى التاريخ ، لحظات تمتزج فيها إرادة البقاء مع طموح الخلود .

وانتهجت الثورة الفرنسية مساراً شديد التعرج بقدر شدة وعورته. وهى فى ذلك ليست استثناءً . وعند كل منعطف تختلف القيادات ، وكثيراً ما تقتتل ، بينما الخصوم متربصون ومتمرسون فى الغدر والتآمر . وتفتك الأحداث بأفضل القادة وأشدهم جسارة وأكثرهم طهراً وإخلاصاً . أعدم مكسميليان روبسبير . ودرج محترفو كتابة التاريخ على نعته ، هو وحكومته التى نقلت فرنسا من عصورها المظلمة إلى عصرها الحديث وذادت عنها جحافل بقايا الإقطاع الأوروبى .. درجوا على نعته بـ « الإرهاب » . وهى كلمة أدخلتها المحافظية الأوروبية فى القاموس السياسى منذ ذلك الوقت لإرهاب الثائرين على مظالم الماضى ، ولتبرير الجرائم التى يرتكبها أصحاب الإمتيازات لتبرير جرائمهم التى لا يكفون عن ارتكابها بدعوى إقرار القانون واستتباب النظام .

وكان الجنرال نابليون بونابرت هو العسكرى الذى عبر عن إرادة الطبقة الجديدة فى الإنفراد بالسلطة . تمكن بونابرت ، بتوجيه مدافع الميدان لحصد أرواح المتظاهرين فى شوارع باريس ، تمكن من كبح الإندفاع الثورى لجماهير فقراء فرنسا ، وإعادتهم إلى التزام السكوت ، وتمكن من الإنفراد بالسلطة مع إبعاد ممثلى النظام القديم عنها ، ثم الإهتمام بإقامة أسس الدولة الفرنسية العصرية . ولكن ملوك أوروبا وأباطرتها على الرغم من فرط إعجابهم به وتقديرهم لوحشيته فى إخماد ثورة الفقراء والبطش بقياداتهم ـ ما كانوا ليقفوا مكتوفى الأيدى وفرنسا الحديثة يجرى بناء مؤسساتها الجديدة التى تتحدى مقومات نظمهم البائدة ، فلم يكفوا عن التحرش بفرنسا النابوليونية واستفزازها، ومحاولة إعادة النظام القديم ، بالتدخل والتآمر والغزو المسلح . من ثم ، كانت الحروب النابوليونية التى (لسخرية التاريخ) استثمر فيها نابليون شعارات الثوار ليستميل الشعوب الأوروبية التى كانت مفتونة بنداءات « الحرية والإخاء والمساواة » . ولا جدال فى أن التجاوب الشعبى وجهود الجماعات الثورية كانت هى العامل الحاسم فى الإنتصارات التى حققها الغازى الفرنسى ، وتمكن أثناءها من زعزعة الأرض تحت العروش الأوروبية جميعاً .

ولأن الكثرة تغلب الشجاعة ، ولأن البورجوازيات الأوروبية عموماً لم تكن على درجة من النضج الكافى لاستلام زمام الأمور فى أيديها ، ولأن نابليون ـ بعد قوة الإندفاع الأولى ـ كان قد بدأ يكشف عن الطبيعة العدوانية التوسعية للطبقة التى استولت على السلطة بعد الثورة ، وافتضح أمره كإمبراطور ، (وإن يكن من نوع جديد) ، ولا علاقة له بحرية ولا إلتزام بإخاء ولا مراعاة لمساواة .. لكل هذا تمكن تحالف الملوك والأباطرة القدامى (المحافظون) من كسر جيوشه ، وإجباره على الإستسلام ، وشحنه إلى سيشل ليهلك فى

منفاه ، وإعادة أسرة البوربون على عرش فرنسا ، وتنظيم الشئون الدولية (الأوربية) لإعادة كل شيء إلى ماكانت عليه قبل الثورة .. (أو هكذا خيل لهم) .

كان مؤتمر فيينا ، عام ١٨١٥ ، هو الملتقى الذى وقع فيه ملوك أوروبا الكبار ، وأباطرتها المرهوبون ، على وثائق إقرار « النظام الدولى الجديد » . وكان مترنيخ ، وزير خارجية الإمبراطورية النمساوية ، هو العقل المفكر والطاقة المنظمة لذلك المؤتمر . من ثم كان متيرنخ هو علم المحافظية الأشهر فى مجال العلاقات الدولية فى القرن التاسع عشر . وهنا ـ ليسمح لنا القارىء أن نقفز عبر الزمن أكثر من مائة عام لنقول إنها لم تكن صدفة أن رسالة الدكتوراه التى حصل بها الدكتور هنرى كيسنجر على درجته العلمية ، فى أواسط القرن العشرين ، كانت عن سياسية مترنيخ . وأن وزير خارجية الإمبراطورية النمساوية هو الأب الروحى التاريخى لوزير خارجية الإمبراطورية الأمريكية المعاصرة ، والمهندس الأكبر لمخططاتها العالمية . وقل لى من مثلك الأعلى أقل لك من أنت .

تقول دائرة المعارف البريطانية الأصل ، الأمريكية التمويل والولاء :«كانت سياسة العداء لليبرالية وللثورة تشكل عاملاً أساسياً فى العلاقات الدولية فى فترة مترنيخ ... ولم تكن محافظية مترنيخ إلا رد فعل للسخط الذى أصاب الجالسين على العروش الأوروبية فى أعقاب الثورة الفرنسية وخوفهم من إنتشار الحركات المطالبة بالإصلاحات والدساتير الليبرالية » .

وفى محاولة (مقبولة) لتأصيل المحافظية الغربية الحديثة ، تعود دائرة المعارف البريطانية إلى ماقبل الثورة الفرنسية ، بل إلى ماقبل الثورات البورجوازية الأوربية عموماً ... إلى عصر التنوير الأوروبى ، حيث تقول :

« ... فى أعقاب عصر التنوير الأوروبى ، كان المجتمع السياسى فى الغرب بعيداً عن التعاطف مع المحافظية ، سواء كفلسفة سياسية أو كبرنامج لأحزاب تدافع عن مصالح محافظة » .

وكما لم نصبر ونحن نتحدث عن مترنيخ القرن التاسع عشر ، فتعجلنا الإشارة إلى كيسنجر القرن العشرين .. فإن محرر فصل «المحافظية» فى دائرة المعارف البريطانية لم يصبر هو الآخر ، إذ نراه يقفز ـ عبر الزمن ـ من الحديث عن الأنوار الفكرية والروحية التى كانت تصعد فى سماء الفكر والوجدان الأوروبى منذ حوالى أربعة قرون ، ليسقط بنا فى ظلمات القرن العشرين ـ أعنى فى ظلمات محافظية أواخر القرن العشرين ، حيث يقول بالحرف الواحد :

« والحق أن حركة التنوير ترتب عليها انتشار أفكار ومواقف معينة ، وتمخضت عن نتائج سياسية بعيدة الأثر امتدت على مدى القرون التالية . وأهم هذه الأفكار هو الإعتقاد فى إمكان تحسين الحالة الإنسانية . وهو اعتقاد يتماشى مع فكرة التقدم ، مع ما يصاحبها من نزوع قوى لنبذ المؤسسات والممارسات الراهنة ، أو تعديلها ، من أجل مزيد من التقدم . ووصف النهج الجديد والممارسات الجديدة بأنها عقلانية. وتغطى العقلانية مساحة هائلة من ألوان الطيف السياسى ، حيث تضم الكثير من حركات الإصلاح الليبرالية ، واشتراكية دولة الرفاهية (مثل تلك التى أخذت بها البلاد السكندنافية ـ س . ز) وأشكالاً من الإقتصاديات المختلطة الموجودة بصفة خاصة فى أوروبا الغربية، والإشتراكية الماركسية الطراز ، والحق أن التغييرات التى تمت تحت راية العقلانية كانت هائلة ، وأثارت الإنتباه إلى ما وصف

بأنه مأزق دفعت إليه المحافظية الحديثة . ذلك أن المحافظين اضطروا لإتخاذ موقف دفاعي في مواجهة حركات التجديد المستمرة التى قادها العقلانيون الذين احتفظوا دائماً بالمبادرة الفكرية والسياسية » .

هكذا ، بوضوح لا يحتمل التأويل ، وعلى لسان حكماء الغرب الأنجلو سكاكسونى أنفسهم ، يكتمل التعريف بالملامح الأساسية للمحافظية الغربية الحديثة ، التى تحمل لواء الدوائر الحاكمة فى الولايات المتحدة الأمريكية وتحاول تسييدها على كل الإيديولوجيات ، وتحاول مصادرة أية اجتهادات للتجديد والتطوير الإيديولوجى ... كل ذلك مع إدعاء انتهاء عصر الإيديولوجيات ، والحجر على المشتغلين بالفكر... مع إغرائهم بالبحث عن أعمال أنفع وأربح ، فى مكاتب الخبرة ودراسات الجدوى .

الحرب الإيديولوجية الدائمة فى العالم الحديث (١)

المحافظية الغربية تخوض المعارك ضد المذاهب العقلانية :

الليبرالية والإشتراكية

بهدم سور برلين ، وإعادة توحيد ألمانيا فى الإطار الأطلنطى ، إنطنوت صفحة الحرب الباردة فى غير صالح السوفييت . وقبل أن تفيق القوى الدولية المعنية الأخرى - فى لحظات الإرتباك ونصف الفوضى التى أعقبت الإنهيار السريع للمعسكر السوفيتى ، أنتهزت الولايات المتحدة الفرصة ودبرت أزمة الخليج ، وغذتها وصعدتها لتتحول إلى تلك الحرب المشئومة التى دمرت عمران الكويت وثرواتها ، وانتهبت عائدات خليج النفط لأجيال ، ومازالت قوات أمريكا وتوابعها هناك لتدمير مابقى من الدولة العراقية ، ومنع أية دولة من دول المنطقة الممتدة من شبه القارة الهندية إلى المحيط الأطلسى - منعها من الأخذ بأسباب القوة الإقتصادية أو المنعة العسكرية أو النهوض الحضارى ... هذا ، بالإضافة إلى محاولة تحقيق الهدف الكونى لهذه المظاهرة الحربية المهولة ، ألا وهو إثبات أن مايسمونه « النظام العالمى الجديد » هو نظام أمريكا وحدها لا شريك لها ، وأن من تحدثه نفسه بالخروج على هذا « النظام » ، أو يدعى لنفسه الحق فى المشاركة فى إدارته ، (زعماء كانوا أو أمماً بأسرها) ، إنما هم مجرد «إرهابيين» « متطرفين » « خارجين على الشرعية الدولية » يغامرون بإهلاك أنفسهم ودمار بلادهم .

وفى مهرجان الدمار الجهنمى والخراب الشيطانى سجل الإعلام الأمريكى وتوابعه أكبر انتصارات الحرب ، وأوصل الرسالة إلى كل من يعنيهم الأمر . ومن بين ما تضمنته الرسالة أن إنتهاء الحرب الباردة بين دول الشمال الصناعى لا

يعنى انتهاء الحرب ضد دول الجنوب .. أو ـ بتعبير أوضح ـ لا يعنى إنهاء استئثار دول الشمال الصناعية القوية بثروات دول الجنوب الطبيعية وقوة عملها البشرية الرخيصة ... وفى الجنوب الفقير استوعب الدرس غالبية الوجهاء وأصحاب الإمتيازات فى البلاد المستضعفة ، فتسابقوا لإظهار حسن النية وتمام الطاعة والولاء ، لعل قلوب سادة العالم ترق فيدر جوهم فى عداد العاقلين المعتدلين الذين يسلمون بأن ليس أمامهم إلا أن يتعلقوا بعجلة الحرب الأمريكية دون مناقشة أو شروط .. لعلهم ينجون بجلودهم ، وربما يتفضل السادة فيجودون على أشخاصهم بشىء من الأسلاب أو بفضلة من اللحوم المنهوش .

ومن أهم مايلفت النظر فى هذا المهرجان الأمريكى الذى يقام لتدُشين نظامهم العالمى « الجديد » أن الإيديولوجيين الأمريكيين عازفون عن التغنى بتفوق الإيديولوجية الأمريكية ، على الرغم من توفر المناخ الذى يبرر ذلك ، وأكثر .. بل إننا نراهم يفضلون أن يدعوا ألا مكان للإديولوجيا فى العالم الأمريكى ، ويؤكدون عزمهم على « إدارة » العلاقات والمعاملات بين الدول والجماعات البشرية وفقاً لوصفةٍ « لا » إيديولوجية بسيطة ، مكونة من ثلاث كلمات ، هى « المصالح ـ علاقات القوى ـ النجاح » ... (المصالح المادية طبعاً، وعلاقات القوى العسكرية، فى التحليل الأخير) . وربما كان التسليم بانتهاء الإيديولوجيا هو من بين أهم الشروط التى يحاول السادة الأمريكان فرضها على العالم «الجديد» ، لتحققهم أن الحالة الذهنية ــ الوجدانية (أى الحالة الإيديولوجية) للإنسان هى الحافز الأساسى للجماعات البشرية ، على مر العصور ، لمقاومة غطرسة القوة العسكرية والمصالح المادية .

ورداً على هذا الإدعاء نقول إنه على الرغم من أن العالم الذى دشنته

حملة الخليج عالم « جديد » فعلاً ، (وإن يكم بالمعنى البغيض للكلمة ، حيث هو عالم أشد همجية وأكثر دموية وأسرع اندفاعاً نحو الدمار) ، إلا أن وصفه « المصالح ـ علاقات القوى ـ النجاح » ، (أو مايسمى فى كتابات البعض «البراجماتية ») ، ليست جديدة على الإطلاق ، بل هى وصفة قديمة قدم التاريخ . كذلك ليس صحيحاً أنها وصفة « لا » إيديولوجية ، ولكنها هى نفسها التلخيص الجامع لأقدم الإيديولوجيات .. نعنى الإيديولوجية المحافظة ، أو هى « المحافظة » Conservatism إنها الإيديولوجية التى اعتنقها ـ بمسميات متنوعة وأحياناً بغير مسميات ـ أصحاب السلطة والإمتيازات فى كل المجتمعات على مر العصور .. وهى أقدر الإيديولوجيات على التجدد والمواءمة ، والتأقلم والتمويه ، وتغيير المسميات واللافتات ، وادعاء الصفات ، وإظهار التدين ... وأكثرها عزوفاً عن الأخذ والعطاء الفكرى مع الإيديولوجيات التى تخالفها ، وهى دائما حريصة على إخفاء هويتها كإيديولوجية .. بل إن المحافظية ، فى لحظات انتصارها وأوقات زهوها ـ مثلما هى اليوم ـ تعلن عدم وجود الإيديولوجيات أصيلاً ، كتبرير لمحاولاتها تدمير إيديولوجيات الآخرين. ذلك أن كلمة إيديولوجية فى زماننا ، خاصة تلك التى يعتنقها خصوم المحافظية ، توحى بأشكال من الإلتزام بمثل عليا للتعامل بين الأفراد والجماعات البشرية توصلت إليها الإنسانية فى تاريخها الطويل ، وهى أمور تحاول المحافظية الحديثة ، تحت الزعامة الأمريكية ، دفع المستضعفين إلى نسيانها واليأس من النضال من أجل تحقيقها ، والقبول بالفقر والمهانة والدمار ، باعتبار أن هذا هو قدر المستضعفين فى عالم تحكمه المصالح الغالبة والقوة الضارية .

ولأن الإيديولوجيات المعاصرة لها منابع قديمة يضرب بعضها فى جذور التاريخ العميقة ، فإن الإيديولوجيات أقوى أثراً فى الأمم القديمة ذات الحضارات

العريقة والتاريخ الطويل وهى عينها الأمم التى تتحمل العبء الأكبر فى حقبة السيطرة الغربية الحديثة والمعاصرة . ومن هنا كان الإهتمام الكبير الذى يوليه السادة الأمريكان ، ليس فقط لمحاولة القضاء على إيديولوجيات الآخرين ، إنما أيضاً لإلغاء تاريخهم ، وتنسيتهم ماضيهم ، ومسح ذاكرتهم . ومن ثم تزامن الترويج لأغلوطة إنتهاء الإيديولوجية مع ترويج تجارى كاسح لكتاب سطحى صدر فى أمريكا ويوزع فى كل العالم يتحدث عن نهاية التاريخ .. وكل هذه الدعاوى ، وتفريعاتها ، يرددها ـ للأسف الشديد ـ غالبية صناع الرأى العام فى بلادنا .. الكل عن جهل ، والكثرة عن مصلحة .

وفى المنعطف التاريخى الراهن ، لا يمكن أن يكون من دواعى سرورنا أن نتحدث عن انتصار الإيديولوجية الأمريكية . ومن كانت مشاعرة مُثلنا ، فالأحرى به أن ينتهز فرصة عزوف الإيديولوجيين الأمريكيين عن التغنى بانتصارهم .. فيسكت . الأحرى بنا ألا ننبه الناس إلى أن قائمة الإنتصارات الأمريكية تتضمن ، أيضاً ، إنتصاراً على الجبهة الإيديولوجية ، خاصة إن كانوا هم أنفسهم لا يريدون الخوض فى هذا الحديث .

غير أننا لسنا فرصويين سياسيين متعجلين ، ولا نحن دعاة محترفين ، ممن يجنون من المكاسب بقدر ما يصرفون الناس عن الواقع المؤلم ، متذرعين بالحرص على معنويات العامة .. إنما نحن باحثون عن الحقيقة. واحتراماً للعقل الإنسانى ، نرى أن من واجبنا الإقرار بالحقيقة كما هى ، مهما بلغت مرارتها . أما صيانة معنويات الناس بإخفاء الحقائق ، (أى بالكذب ، أو السكوت على كذب الأخرين) ، فلا يمكن اعتبارها مكسباً . فالمكاسب العاجلة التى تتحقق بالكذب ليست مأمونة العاقبة .

والإيديولوجية الأمريكية المنتصرة فى هذا المنعطف التاريخى الكئيب ،

ليست إلا جزءاً من المحافظية الغربية الحديثة . ولكى نتابع حلقات الحرب الإيديولوجية فى العالم الحديث ، لابد من الإشارة إلى أصول المحافظية الغربية الحديثة الى ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر ، حيث كانت هى الإيديولوجية التى واجه بها المحافظون الأوروبيون مخاطر الثورة الفرنسية . فمنذئذ يبدأ الجذر التاريخى للإيديولوجية الأمريكية أما المهمة الأساسية التى نجحت فيها الإيديولوجية الأمريكية ، فهى الصراع ضد الإيديولوجية السوفيتية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، أى بعد أن آلت إلى الولايات المتحدة زعامة القوى المحافظة فى الغرب ، بل وفى العالم بأسره .

وفى الحديث عن الجانب التاريخى ، نبدأ بالتأكيد على ماذكرته دائرة المعارف البريطانية من أن المهمة التى تصدت لها المحافظية الغربية الحديثة هى مناهضة الأفكار والمواقف التى انتشرت بفضل حركة التنوير الأوروبى ، والنتائج السياسية البعيدة الأثر التى ترتبت على هذه الأفكار ، والتى امتدت على مدى القرون التالية . وتقول دائرة المعارف بالحرف الواحد إن « أهم هذه الأفكار هى الإعتقاد فى إمكان تحسين الحالة الإنسانية ، وهو إعتقاد يتماشى مع فكرة التقدم ، مع نزوع قوى لنبذ المؤسسات والممارسات القائمة ، أو تعديلها ، من أجل مزيد من التقدم ووصف النهج الجديد والممارسات الجديدة بأنها عقلانية . وتغطى العقلانية مساحة هائلة من ألوان الطيف السياسى ، حيث تضم كثيراً من حركات الإصلاح الليبرالية ، واشتراكية دولة الرفاهية ، وأشكالاً من الإقتصاديات المختلطة .. والإشتراكية الماركسية الطراز » .

باختصار ، المحافظية الغربية الحديثة ، باعتراف أصحابها أنفسهم ، معادية لكل المبادىء التى رفعت لواءها الفلسفات والمذاهب الإنسانية التى جاء بها عصرا النهضة والتنوير ، وأضافها الفكر والوجدان الأوروبى المستنير حتى

الآن . ومهما حققت المحافظية الغربية الحديثة من انتصارات فى حربها الدائمة ضد خصومها العقائديين والسياسيين ، فإن غلاة المحافظين لن يعتبروا أنفسهم منتصرين انتصاراً نهائياً إلا إذا عادت العلاقات بين البشر ، أفراداً أو جماعات، إلى عصور ما قبل التنوير .

والمحافظية السياسية ، فى نظر أصحابها ، أقرب أن تكون توصيفاً لسلوكيات عملية من كونها منظومة من المبادىء والقيم تلزم المحافظين أى التزام حضارى أو أخلاقى صارم . ومن ثم ، فإن السياسيين المحافظين ـ فى تعاملهم مع الإتجاهات والفرق السياسية الأخرى ، مستعدون دائماً لأن يلبسوا لكل حال لبوسها ، فهم أكثر الجميع قدرة على الممالأة وإخفاء النوايا ، سعياً لاستمالة هذا الإتجاه أو ذاك ، أو دفع هذا الفريق أو ذاك للصدام مع الفرق الأخرى ـ بعضها أو كلها ، وضرباً للجميع بالجميع . أى أنهم بلغة السياسة العملية ، أقدر على تقسيم صفوف خصومهم التقدميين والعقلانيين ، الليبراليين الراديكاليين والإشتراكيين .. إلخ ...، وأبرع فى ممارسة اللعبة السياسية الخبيثة « فرق تسد » . وهم متمرسمون فى تشكيل جبهات مع بعض الخصوم ضد البعض الآخر ممن يعتبرونهم ، فى اللحظة المعينة ، أكثر خطورة على مصالحهم وامتيازاتهم ... إلى أن يقضوا عليهم ... ثم ينقلبون على حلفاء الأمس ، واحداً بعد الآخر . هكذا رأينا أ القوى المحافظة ، فى المواجهة مع الثورة الفرنسية ، تتحالف مع الجيروند ضد الجبليين ، فلما قضى على هؤلاء تحالفوا مع بونابرت ضد الجيروند ... وأخيراً انفردوا بالامبراطور ، ولم يهدأ لهم بال إلا بعد أن هزموه وأذلوه ، وأعادوا أسرة لبوربون إلى العرش ، وصورت لهم أحلامهم أنهم أعادوا فرنسا إلى عصر ماقبل التنوير .

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين ، كان الخصوم الأساسيون الذين تصدت المحافظية الغربية لمحاولة القضاء عليهم هم الليبراليون الراديكاليون (أى المتشددون) ، أولئك الذين حاولوا أن يرجحوا كفة الجوانب الخيرة الإنسانية فى الثورات الرائدة فى الغرب (فى انجلترا عام ١٦٤٠ ثم تكملتها عام ١٦٨٨ وفى أمريكا ١٧٧٦ ، وفى فرنسا ١٧٨٩) .. تلك الثورات التى نقلت الغرب من ظلام قرونه الوسطى إلى عصره الحديث .. ثم حاولوا ، نقصد الليبراليين الراديكاليين ، تسييد جوهر نداء « الحرية والإخاء والمساواة » فى المجتمعات التى تمخضت عنها هذه الثورات .

وعندما نشأت وتطورت الحركة العمالية فى القرن التاسع عشر ، فى البلاد الأوروبية التى سارت أشواطاً متفاوتة فى سبيل إنجاز الثورة الصناعية ، بدأت الحركة العمالية ـ النقابية والإشتراكية ـ تحتل مساحة متعاظمة فى هموم المحافظية الغربية ، وإن ظلت مساحة ثانوية بالقياس إلى هم الليبرالية الراديكالية .

ولكن هموم مواجهة الحركة العمالية قفزت إلى أبعاد منذرة بخطر كبير عام ١٨٧٠ ، عندما نجحت ثورة ثورة عمال العاصمة الفرنسية ، فأسقطوا الحكومة « البورجوازية » وأعلنوا قيام « كوميون باريس » (وذلك عنوان يمكن أن يترجم إلى « مجتمع باريس الشيوعى » . حينذاك كانت فرنسا مشتبكة فى حرب ضروس مع العملاق الألمانى الذى كان قد أنجز وحدته القومية قبل ذلك ببضع سنوات . ومن بين أهم الأسباب التى أدت إلى قيام ثورة العمال هو الفساد الذى كان قد استشرى فى الدولة وأعجز قواتها المسلحة عن الدفاع عن الوطن .

ولكن كابوس الكوميون ، الذى جثم على صدور البورجوازية الفرنسية خاصة والقوى المحافظة الأوروبية عامة . كان كابوساً قصير العمر . نسى الجميع

خلافاتهم أمام الخطر الأكبر . فتح حكام فرنسا الطريق إلى باريس أمام الجيش الألمانى الذى احتل العاصمة الفرنسية ، وتفرغت القوات الفرنسية للقضاء على الكوميون .. وكانت مذبحة مروعة حصدت فيها أرواح عشرات الآلاف من الثوار وهم خلف متاريسهم التى نصبوها ليدافعوا عن المدينة ضد المهاجمين الألمان .. ومن بين ماترويه كتب التاريخ (غير الرسمية) أن من بين ما ساهمت به كثير من النساء الفرنسيات البورجوازيات ، فى الفصول الأخيرة من المذبحة ، أنهن نزلن إلى شوارع المدينة المكلومة يتشفين فى العمال المهزومين بفقء عيون الثوار المحتضرين بالأطراف المدببة لشماسيهن .. !! .

*　　*　　*

تلخيصاً وتحديداً للخليفة التاريخية ، الإجتماعية ـ السياسية ، للحرب الإيديولوجية التى خاضتها القوى المحافظة فى الغرب ضد المذاهب العقلانية ، الليبرالية الراديكالية ثم الإشتراكية بتنويعاتها ، فى الحقبة الممتدة من الثورة الفرنسية إلى الثورة الروسية ، فإننا نركز الإنتباه على المعالم التاريخية التالية:

١٧٨٩ عام الثورة فى فرنسا ضد أعتى نظام ملكى استبدادى فى أوروبا الغربية ، المستند إلى ركائز عتيدة من أمراء الإقطاع وكبار رجال الكهنوت الكنسى . هذه الثورة هى التتويج الأسمى لأكثر من ثلاثة قرون لجهود رواد النهضة الأوروبية ثم مشاهير عصر التنوير ومفكريه الليبراليين ،(من أمثال فولتير ومونسيكيو وروسو الفرنسيين ، ولوك وهوبز وهيوم الإنجليز) .والثورة الفرنسية هى ثالث الثورات الكبرى فى الغرب ، وأكثرها راديكالية ، بعد الثورتين الإنجليزية والأمريكية . وهى الثورات التى أخرجت الغرب من قرونه الوسطى ، ورسخت مواقع دوله الثلاث الكبرى فى

مراكز القيادة العالمية .

فى نفس الوقت ، هبت القوى المحافظة للوقوف فى وجه خطر انتشار الثورة (أى خطر انتشار مبادىء الليبرالية الراديكالية) إلى بقية الدول الأوروبية ، بالتآمر والتدخل العسكرى . وفى عام ١٧٩٠ دشّن إدموند بورك الفكر المحافظ الحديث بمقاله الشهير : « ملاحظات حول الثورة فى فرنسا » .

بعد وصول الثورة إلى ذروتها أثناء حكم روبسبير القصير الأجل ، نجحت القوى المحافظة فى استمالة الجيروند ضد الجبليين كبداية ، وبدأت سلسلة الإنقلابات المضادة للثورة . أعدم روبسبر فى ١٧٩٤ . ثم تمت ، فى بضع سنوات ، تصفية من بقى من القيادات الثورية . وبعد أن نهض نابليون بونابرت بمعظم المهمة ، تحالف ضده ملوك أوروبا وأباطرتها ، وبدأت الحروب النابوليونية.

١٨١٥ عام مؤتمر فيينا . وفيه وضعت الحروب النابوليونية أوزارها ، وأعلنت القوى المحافظة أنها حققت ماتصورت أنه آخر انتصاراتها على الثورة الفرنسية ، وأعادت أسرة البوربون إلى العرش ، ودعمت مراكز العروش الأوروبية المهتزة

من خلال إئتلاف الملوك والأباطرة ضد الثورة ، ثم تحالفهم فى حروبهم ضد نابليون ، يولد أول نظام عالمى « جديد » (!!) فى التاريخ الحديث - (أما أشبه الليلة بالبارحة) .. بمعنى أنه نظام للأمن الجماعى ، يستند إلى القوة العسكرية ، ويتصدى للدفاع عن مصالح الدول الكبرى وامتيازاتها ، كما يتصدى لإيقاف حركات التغيير والإصلاح السياسى الراديكالى ، والحيلولة دون نشوب أية ثورات على النطاق العالمى .

كان ميترنيخ ، وزير خارجية الإمبراطورية النمساوية الهنغارية هو نجم مؤتمر فيينا ومهندس النظام العالمى «الجديد» ، برز اسمه كعلم ورمز للمحافظية الغربية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . احتل مكان الصدارة من بعده رجال الدولة الإنجليز ، من العصر الفيكتورى إلى أفول نجم الإمبراطورية البريطانية فى أواسط القرن العشرين .. من دزرائيلى إلى تشرشل . ومازال الخط الإيديولوجى للمحافظين الإنجليز مستمراً حتى اليوم ، حيث نرى تجسيده فى مارجريت تاتشر وتلامذتها . ولكن دور الزعامات الإنجليزية المحافظة بدءاً من تشرشل ، (أى منذ آلت الزعامة الإقتصادية والعسكرية فى الغرب لأيدى الولايات المتحدة) ، أصبح لا يزيد كثيراً عن بيع الحكمة للمحافظين الأمريكان - خاصة أولئك القابعين فى زعامة الحزب الجمهورى ويمين الحزب الديموقراطى .

احتل مكان مترنيخ ، فى أواسط القرن العشرين ، وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس ، ومن بعده هنرى كيسنجر ... ويحاول جورج بوش أن ينتزع اللقب ، وإن يكن من السابق لأوانه القول بأنه يستطيع .

١٨٤٨ سلسلة من الثورات المطالبة بالحرية وإقامة أنظمة دستورية على النسق الليبرالى تجتاح عدداً من أهم البلاد الأوروبية التى كانت قد خطت أشواطاً متفاوتة فى طريق الثورة الصناعية . كشفت الثورات عن هشاشة الأوضاع السياسية التى حاول مؤتمر فيينا تثبيتها ، وعن ضعف الأنظمة التى حاولت أن تتجاوز عمرها التاريخى بعد ١٨١٥ .. وثبت أن القوى المحافظة كانت قد بالغت كثيراً فى تقدير انتصاراتها فى أوائل القرن ، التى لم توقف مد الثورات الديموقراطية فى أوروبا إلا مؤقتاً .. ذلك أن الوتائر المتسارعة للثورة الصناعية وإشعاعات الفكر والمذاهب الليبرالية وكفاءة

مؤسسات الدولة الديمقراطية الحديثة وقدرتها على مسايرة التقدم فى مجالات الحياة الأخرى ... كل ذلك كان أعمق أثراً وأبقى على الزمن من محاولات المحافظة على مصالح طبقات مضمحلة وأنظمة عتيقة وامتيازات غير مبررة .

فى محاولة الإلتفاف حول مد الثورات واحتوائها ، بعد أن ثبت استحالة القضاء عليها ، انتقلت المحافظية الأوروبية من مواقع المواجهة إلى محاولات المواءمة . وترسم البعض نهج البورجوازية الإنجليزية التى كانت أقدر الجميع على التلاؤم ، وكانت قد سبقت إلى الأخذ بنوع من «الملكية الدستورية » . مما شجع القوى المحافظة على انتهاج طريق التواؤم Conformism أنها تحققت من أن النظام الإجتماعى ـ السياسى الذى تمخضت عنه الثورة الفرنسية (خاصة بعد حوالى نصف قرن من الإنقلاب التى استهدفت القيادات والإتجاهات الأكثر راديكالية) خلق أصحاب امتيازات جدد وأغنياء جدد ، ولم يعد من الصعب أن يتعايش ويتواءم من بقى من أصحاب الإمتيازات القدامى والأغنياء القدامى مع نظرائهم الجدد ، ويندمجوا وإياهم ليشكلوا معاً الطبقة العليا فى النظام الجديد .

فى أحداث عام ١٨٤٨ ، إشترك بدور ملحوظ نوع جديد من فقراء المدن، نعنى العمال الصناعيين (البروليتاريا) المختلفين اختلافاً نوعياً عن صناع الحرف السابقة على الثورة الصناعية . وكان للبروليتاريا دور متميز ومطالب اجتماعية اقتصادية ، إلى جانب المطالب السياسية العامة ، تتعلق بتحسين ظروف عملهم ورفع مستواهم الحياتى .

لم يكن صدفة ـ إذن ـ أن كان عام ١٨٤٨ هو عام « البيان الشيوعى» الذى أصدره كارل ماركس (بالإشتراك مع فردريك إنجلز) وأعلن فيه أن النظام الذى جاءت به الثورات الديمقراطية قد كشف عن

تناقضات تخرج به عن تحقيق وعود رواد الليبرالية بإقامة مجتمع «الحرية والإخاء والمساواة » . ودعا إلى فكرة أن المجتمع الأمثل لن يتحقق إلا بقيادة نضال البروليتاريا الصناعية ضد البورجوازية ، من أجل القضاء على النظام الرأسمالى وإقامة النظام الإشتراكى على أنقاضه ، ثم الإنتقال إلى النظام الشيوعى ... هكذا ولدت الإشتراكية العلمية ، أو هى الإشتراكية الماركسية ، أو الشيوعية .. أو سمها ماشئت . **ومنذئذ بدأ الإشتراكيون يحتلون الموقع الذى كان يحتله الليبراليون الراديكاليون كيسار للنظام.**

١٨٧٠ عام الحرب الألمانية الفرنسية ، والكوميون . كشفت الهزيمة العسكرية الساحقة التى نزلت بفرنسا ، كشفت عن فساد مؤسسات الحكم التى كانت قد فرضتها سلسلة انقلابات تعاقبت لتصفية التراث الراديكالى للثورة الفرنسية استمرت أكثر من سبعين عاماً ، وأظهرت قصور هذه المؤسسات عن النهوض بأعباء التطور السريع للرأسمالية الصناعية فى الداخل ومشروعاتها للتوسع الخارجى ودورها فى الزعامة العالمية .. بل كشفت عن عجز هذه المؤسسات عن الدفاع عن أرض فرنسا نفسها فى مواجهة تحدى العملاق الألمانى الذى خرج من كمونه يطلب مكانه فى قيادة النظام العالمى . وأهم من كل من ذلك ، كشفت محنة الهزيمة وأزمة النظام عن الطاقات الثورية الإنفجارية للبروليتاريا الصناعية (كوميون باريس) .

حسمت الطبقة الحاكمة الفرنسية ، التى أصبحت هى الرأسمالية المكتملة الملامح ـ حسمت أمرها ، وأنهت النظام الملكى وصفت مخلفاته إلى غير رجعة، وأعادت بناء مؤسسات دولة بورجوازية ديموقراطية برلمانية متكاملة ،

(الجمهورية الثالثة) ، كانت هى الأكثر تكاملاً بين نظيراتها فى الغرب .. هذا بينما وضعت عيونها على البروليتاريا الصناعية باعتبارها الخطر الحقيقى ، وعلى الإشتراكيين باعتبارهم يسار النظام .

إيديولوجياً ، أصبحت البورجوازية الفرنسية أكثر البورجوازيات الأوروبية استعداداً للتواؤم . ولكن التواؤم بعد الكوميون اتجه لتهدئة يسار النظام واستيعابه ، وليس للإلتحام مع بقايا النظام السابق التى كانت قد صفيت تماماً . وأفسح المحافظون الفرنسيون المتوائمون مكاناً رحباً لإستيعاب خصوم الأمس (الليبراليين الراديكاليين) الذين سرعان ما اندمجوا تماماً فى المؤسسة الحاكمة ـ سواء وهم فى المناصب الوزارية أو فى كراسى المعارضة البرلمانية . وكرست القوى المحافظة الجانب الأكبر من طاقاتها لمناهضة الإشتراكيين ، وكانت فرنسا فى ذلك سباقة . فالقوى المحافظة فى الغرب ـ عامة ـ لم تضع البروليتاريا وفصائلها السياسية ، الإشتراكية والشيوعية ، على رأس قائمة المخاطر والخصوم إلا بعد قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧ .

الأسلوب الدموى الذى قضى به الكوميون ، بالإضافة إلى أن النظام الرأسمالى كان قد ولج مرحلة نمو بنيوى فى الداخل وتوسع سهل فى المستعمرات ، كل هذا جعل كثيراً من الإشتراكيين الأوروبيين يأخذون بتحفظ شديد فكرة العصيان المسلح كطريق للتغيير الإجتماعى . وراجت أفكار الأخذ بالنهج التطورى التدريجى للوصول إلى الإشتراكية ، وذلك بمحاولة الإستفادة القصوى من جو الحريات الديمقراطية والمشاركة فى الحياة البرلمانية . وهكذا تعاظمت قدرة الديموقراطية البورجوازية على استيعاب الأحزاب الإشتراكية (الأممية الثانية) ، وبدأت مسيرة الديموقراطية الغرب أوروبية تستقيم على ساقيها العتيدين : المحافظين المتوائمين ، المتمرسين فى تسيير مؤسسات الدولة

وإدارة لعبة الإنتخابات البرلمانية والتعددية الحزبية والشبكات الإعلامية، والإشتراكيين الديموقراطيين الإصلاحيين ، الذين اكتسبوا هذه المهارات بالتتلمذ فى المدارس المحافظة وتدرجوا فى مراتب الجهاز الحاكم وتولوا المناصب الوزارية ... بالإضافة إلى تخصصهم الأصلى فى إدارة الحركة العمالية النقابية وجعلها دائماً تحت السيطرة .

ولم تختل المسيرة إلا بعد أن قامت ثورة اكتوبر الإشتراكية فى ورسيا عام ١٩١٧ ، فتبدأ الصفحات الساخنة فى الحرب الإيديولوجية بين المحافظية والشيوعية .

الحـــرب الإيديـــولوجيـــة فى العـــالم الحـــديث (٢)

من ماركسية ماركس .. إلى الماركسية اللينينية

فى ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى . إنهار النظام الذى كان قد أرسيت أسسه قبل ذلك بمائة عام . وكان ذلك النظام قد تمكن من تجاوز كثير من الهزات العنيفة والتحديات الثورية المباشرة ، خاصة تلك التى تفجرت فى ثورات عام ١٨٤٨ ، وفى ثورة عمال باريس وقيام الكوميون عام ١٨٧٠ . تمكنت القوى المحافظة من التصدى لهذه التحديات ، بالإنتقال من مواقع المواجهة إلى محاولات المواءمة واحتواء الخصوم الليبراليين مع انتهاج سياسة دءوبة لتصفية اليسار الليبرالى .. وذلك بانتهاج تكتيكات مرنة تجمع بين القمع المسلح ، وتكوين الإئتلافات والتحالفات إعمالاً لسياسة « فرق تسد » مع محاولات التواؤم مع التطورات الإقتصادية الإجتماعية التى جاءت بها الثورة الصناعية ، وذلك بالتراجع والقبول بإجراء إصلاحات دستورية ذات أشكال ليبرالية ، تأخذ منها طقوسا « ديموقراطية » ومؤسسات تفيد فى تحديث الإدارة ورفع كفاءة الجهاز الحكومى ... مع إفراغ الشكل والأداء الديموقراطى ـ كلما أمكن ـ من المضمون الإنسانى والإلتزام الأخلاقى والجوهر التقدمى العقلانى لليبرالية الأصيلة ، ليبرالية الحرية والإخاء والمساواة ... بإختصار ، عمدت المحافظية الغربية إلى طمس كل ماهو ثورى فى التركة الليبرالية، وتحويلها من أداة لتغيير والثورة الإجتماعية السياسية إلى أداة لتثبت الأوضاع الإجتماعية والإمتيازات الطبقية والهيمنة الدولية ، التى برزت ملامحها ورسخت أبنيتها

فى دول الغرب الصناعى الحديث وفى النظام العالمى الذى استحدثته .

غير أن التحديات الأكثر خطراً جاءت من جانب « القومية » أكثر مما جاءت من جانب الليبرالية الراديكالية أو من جانب الإشتراكية الماركسية التى ولدت عام ١٨٤٨ . فقد كانت الحركة القومية المتصاعدة بين خليط الأمم والشعوب (فى وسط أوروبا وشرقها خاصة) ، تفعل فعلها فى نَحْر أسس الإمبراطوريات التى حاول مؤتمر فيينا أن يطيل عمرها. (ونخص بالذكر منها الإمبراطورية النمساوية الهنفارية) بينما كانت تدفع أمماً ذات شأن للتوحد وتكوين دول قومية قوية (أهمها الدولة الألمانية) ، التى أخذت تشكل تحدياً متعاظماً للإمبراطوريات المضمحلة وللنظام العالمى فى جملته .

وحين وجهت ألمانيا الموحدة ضربتها العسكرية القاسية لفُرَنسا عام ١٨٧٠ ، وقامت ثورة البروليتاريا الفرنسية فى نفس العام ، بدا وكأن النظام العالمى قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الإنهيار . فلم يعد الإصطلاح الجغرافى الذى كان يسمى ألمانيا احتياطياً وسنداً للنظام العالمى ، إنما أصبح الرايخ الألمانى الناهض لغماً مدسوساً فى جوفه ، كما برز خطر الثورة البروليتارية كسلسلة ألغام مدسوسة فى جوف البلاد الصناعية جميعاً .

ولكن وحدة القوى المحافظة للقضاء على كوميون باريس مكنتهم من احتواء خطر الثورة العمالية فى فرنسا وإرجائها إلى أجل غير مسمى فى الدول الصناعية المتقدمة . (وإذا قدر أن يشهد الغرب الصناعى ثورة اجتماعية سياسية ذات طابع إنسانى متحضر ، فلن يكون بينها وبين الثورة التى حلم بها ثوريو القرن التاسع عشر أى وجه للشبه ـ إذا استثنينا ـ طبعاً ـ الجوهر الإنسانى التقدمى) .. ومن جانب آخر ، شهد الغرب الرأسمالى ، فى أعقاب الحرب السبعينية ، فترة ازدهار ونمو بنيوى ، مكنتهم من إحتواء المشكلات

الناتجة عن تناقضات النظام الدولى ، خاصة المنافسة الإستعمارية بين الدول الرأسمالية الكبرى ، خلال الفترة التى امتدت من العقد الثامن للقرن التاسع عشر حتى العقد الأول من القرن العشرين ، وهى فترة تميزت بتنمية اقتصادية صناعية هائلة ، وتوسع استعمارى لم يسبق له مثيل ، طال كل أرجاء قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

فى مقال ذى قمية فكرية ونظرية فريدة تحت عنوان « أزمة الإمبريالية ـ "La Crise de l'Imperialisme" قسم المفكر المصرى سمير أمين تاريخ الرأسمالية العالمية ، منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الوقت الراهن ، إلى أربع مراحل كبيرة « للنمو البنيوى » ، تتخللها مراحل « أزمات بنيوية » طويلة الأمد ـ تمييزاً لها عن دورات الركود القصيرة ، نسبياً ، التى يمكن أن تتخلل حتى مراحل النمو البنيوى . وفى تقديرنا أنه لا غنى لمن يريد أن يتعمق تاريخ العالم الحديث عن الإطلاع على هذا الكشف النظرى الهام ، أو ـ على الأقل ـ الإلمام بعناصره الأساسية) .

* * *

عاد التحدى الألمانى للنظام العالمى على نحو أكثر خطورة بدخول هذا النظام مقدمات أعتى أزماته البنيوية فى العقد الأول من هذا القرن. وشرعت ألمانيا تقوى أسطولها الحربى ولا تخفى تصميمها على أخذ النصيب الذى يتناسب مع قوتها من المستعمرات والأسواق ومناطق النفوذ .. حتى لو كان السبيل إلى ذلك هو استخدام القوة المسلحة ضد الإستعماريين الذين سبقوها إلى نهب العالم . ولم يجد الوفاق الإنجليزى الفرنسى (١٩٠٤) فى تخويف الألمان ، وبدت نذر الحرب فى الأفق .

فى هذا الجو ، عام ١٩١٠ ، انعقد اجتماع لمندوبى عدد من الأحزاب

الإشتراكية الديموقراطية الأوروبية (الأممية الثانية) ليناقش موقف هذه الأحزاب في حالة نشوب الحرب ، ولم تكن الأممية الإشتراكية حينذاك قد تخلت عن الشعار التأسيسي الشهير « ياعمال العالم اتحدوا » ، الذي يعني، من بين أشياء أخرى ، أن تعارض الأحزاب الإشتراكية الإلتجاء إلى الحرب كوسيلة لحل الخلافات بين الدول ، وتدعو عمال كل بلد إلى رفض حمل السلاح ضد عمال البلاد الأخرى دفاعاً عن مايسمى المصالح القومية ـ التي هي بالمنظور الأممي حينذاك ـ ليست إلا مصالح الطبقة الرأسمالية الحاكمة ، وأن ما يجمع عمال أي بلد بعمال البلاد الأخرى أهم وأكثر إيجابية مما يجمع بين عمال البلد المعنى والرأسماليين الذين يستغلونهم. بل إن نداء الأممية كان يذهب إلى أن عمال كل البلاد في جميع أنحاء العالم يجمعهم هدف مشترك ، هو الثورة البروليتارية العالمية للقضاء على النظام الرأسمالي العالمي ، من أجل إقامة نظام اشتراكي عالمي .

ولكن هذا الإجتماع كشف عن تطور آخر في موقف قيادات هذه الأحزاب يزيدها بعداً عن المنطلقات الثورية الأصلية التي قامت عليها الأممية الإشتراكية حيث أصبح واضحاً أن الإتجاه القومي البورجوازي في داخل صفوف الأممية الإشتراكية ذاتها يغلب المبدأ الأممي البروليتاري . وحين نشبت الحرب فعلاً ، وقفت الأحزاب الإشتراكية في البلاد الصناعية الأساسية في خندق واحد مع حكوماتها البورجوازية التي يسود فيها الإتجاه الإستعماري المحافظ ، واشتركت في القتال الدائر ضد شعوب وعمال البلاد الأخرى ... صحيح أنه وجدت هنا وهناك أقليات عارضت ، ولكن أصواتها ضاعت في معمعان الحرب .

فإذا أضفنا هذا الموقف القومي « الشوفيتيّ » (وذلك لفظ يفيد معنى مرذولاً يجعل الفكرة القومية تنقلب إلى تغذية الإتجاهات الإستعمارية

العدوانية) لأحزاب الأممية الإشتراكية الثانية ، إذا أضفنا هذا إلى اختيارها طريق التطور التدريجي والإصلاحات البرلمانية بديلا عن الإعداد للثورة والعصيان المسلح كطريق للقضاء على الرأسمالية وتحقيق الإشتراكية ... فإن أحزاب الأممية الإشتراكية تكون ، عند قيام الحرب العالمية الأولى ، قد استكملت مشوارها لتصبح أحزابها جزءاً من النظام ، تعمل من داخل مؤسساته بهدف دعمه ، وليست أحزاباً ضد النظام الرأسمالى ، تناضل من أجل الثورة عليه وإحلال النظام الإشتراكى مكانه .

* * *

عند النظر إلى عام ١٩١٤ ، من موقعنا حيث نحن فى العقد الأخير من القرن العشرين ، من السهل أن نقول ـ ونحن مطمئنون إلى أننا نؤكد بديهية ـ أن تلك كانت لحظة انهيار للنظام العالمى . ولكن الذين عاشوا تلك اللحظة لم يكن غالبيتهم ، حينذاك ، على نفس حالنا من وضوح الرؤية وسلامة التقدير . فمنذ وحدت الرأسمالية الغربية السوق العالمى وخلقت له نظاماً سياسياً يحكم العلاقات بين الدول ـ وهذا النظام يقوم على دعامتين أساسيتين : الدعامة الأولى تتعلق بالأوضاع الداخلية ، الإقتصادية الإجتماعية فى داخل كل واحدة من الدول الرأسمالية الأساسية ، والدعامة الثانية تتعلق بالعلاقات بين هذه الدول. ولايمكن اعتبار النظام العالمى آمناً ومستقراً إلا إذا توفرت عوامل الإستقرار الإجتماعى السياسى فى داخل البلاد الرأسمالية الأساسية ، وتوفرت ـ فى نفس الوقت ـ عوامل استقرار وتوازن العلاقات بين هذه الدول . صحيح أن نشوب حرب شاملة بين الدول الرأسمالية الأساسية يعنى انهيار الدعامة الثانية ، ولكن تظل الفرصة متاحة ـ أمام سادة النظام العامى ـ لتدارك الإنيهار الشامل للنظام طالما بقيت الدعامة الأولى للنظام سليمة ، أى طالما بقيت

الأوضاع الداخلية ، الإجتماعية السياسية ، فى كل بلد رأسمالى على حدة قادرة على الصمود . فالحرب فى هذه الحالة يمكن أن تتمخض عن إعادة ترتيب أوراق النظام العالمى ، وإجراء تعديلات فى تراتب الشركاء الأساسيين ، دون أن تصاب أسس النظام فى جملتها بأشكال من الدمار يصعب تداركها .

الأوضاع الداخلية ، الإجتماعية السياسية ، فى كل بلد رأسمالى على حدة قادرة على الصمود . فالحرب فى هذه الحالة يمكن أن تتمخض عن إعادة ترتيب أوراق النظام العالمى ، وإجراء تعديلات فى تراتب الشركاء الأساسيين ، دون أن تصاب أسس النظام فى جملتها بأشكال من الدمار يصعب تداركها .

من ثم ، ضغطت القوى الثورية المناهضة للرأسمالية فى اتجاه زعزعة الأوضاع الداخلية فى البلاد الصناعية الأساسية ، وذلك باستنهاض الطبقة العاملة فى هذه البلاد وتوجيه نضالها - تطبيقاً لشعار « ياعمال العالم اتحدوا » - لتحويل الحرب القومية فيما بين الدول إلى حرب طبقية ، أى إلى سلسلة من الثورات ضد الرأسمالية وحكوماتها فى الداخل . بالمنظور الثورى لتلك اللحظة، توفرت إمكانية فريدة لتحويل الحال المأساوية الناتجة عن إحتدام المذبحة (أو الحرب) العالمية التى أثارها الإمبرياليون - تحويلها إلى ظرف تاريخى موات ، تقع فيه الرأسمالية الإستعمارية بين شقى الرحى ، بين الأعباء والمخاطر الجسيمة الناجمة عن الحرب ضد الخصوم والمنافسين الخارجيين من جانب ، وحركة البرولتياريا الثورية فى الداخل من جانب آخر ، وتحين لحظة القضاء عليها تماماً .. هكذا (وتلك دعورة لينين فى ذلك الوقت) يمكن تحويل ظرف المذبحة الإمبريالية العالمية إلى لحظة تفجير الثورة البرولتيارية العالمية .

ولكن ، من الجانب الآخر ، طغى نداء « الدفاع عن الوطن » ضد الأعداء الخارجيين والداخليين ، الذى رفعته قوى الرأسمالية الإمبريالية المحافظة فى كل

بلد رأسمالى على حدة ، طغى على كل ماعداه . وأشهرت الحكومات المتحاربة سيف الإتهام بالخيانة الوطنية فى وجه الدعوة لنبذ الحرب بين الدول وتحويلها إلى حرب بين الطبقات فى كل بلد ... وبهذا ضمنت ولاء كل القوى السياسية ، من الليبراليين الوسطيين إلى الليبراليين الراديكاليين إلى الإشتراكيين الديموقراطيين . وهكذا بدا وكأن الرأسمالية الإمبريالية ، وإيديولوجيتها المحافظة ، قد انفردت بالساحة تماماً ، وتحولت كل الأحزاب السياسية إلى « أحزاب نظام » ... ولولا الموقف المتواطىء الذى اتخذه قادة الأممية الإشتراكية الثانية لما بدا الموقف على هذا النحو من الصعوبة . ففى المراحل الأولى من تلك الحرب العالمية الأولى بدا وكأن قوى الدمار الإمبريالية تعربد فى العالم وحدها دون مقاومة . وحين عُقِد مؤتمران للأممية « الإشتراكية » الثانية فى سويسرا فى عامى ١٩١٥ و ١٩١٦ طغت الإيديولوجية الإستعمارية ، إيديولوجية الحرب والتوسع ، على الإيديولوجية الإشتراكية طغياناً يكاد يكون تاماً . ولم تكن ثمة إلا معارضة ضئيلة جاءت من جانب حزب لم تكن له سوى أهمية ثانوية ، هو الحزب الإشتراكى الديموقراطى الروسى . بل إن الموقف الثورى المتكامل لم يعبر عنه سوى فصيل واحد من هذا الحزب ـ هو جناحه « البلشفى » ، تحت قيادة فلاديمير لنين .

* * *

فى سياق حديثنا عن الحرب الإيديولوجية نقول ، ونكرر القول ، إنه فى السنوات الثلاث التى انقضت بين نشوب الحرب العالمية وقيام الثورة الروسية (١٩١٤ ـ ١٩١٧) إنفردت الإيديولوجية المحافظة بالساحة العالمية والساحات المحلية فى الدول الأوروبية المتحاربة انفراداً يكاد يكون تاماً . وكانت « المحافظية "Conservatism" فى تلك الظروف تلبس لبوساً قومياً متطرفاً ، لم

يكن فى حقيقته إلا ستاراً مهلهلاً يخفى مصالح رأسمالية إمبريالية ـ دفاعية من جانب القوى القديمة (بريطانيا وفرنسا) وهجومية من جانب القوة الصاعدة المنافسة (ألمانيا) . وشحنت الشعوب الأوروبية بفيض من البضاعة الدعائية القومية المحمومة ، ليندفع فقراؤهم يقتلون بعضهم بعضاً فى مذابح الحرب وهم لا يعون من الأمور إلا مايدفعهم إلى مزيد من تقتيل بعضهم بعضاً ، وتدمير نظرائهم وأنفسهم.

كانت المحنة مروعة والتعتيم شاملاً . ففى أوروبا ـ منذ عصر النهضة ـ لم يحدث أن أصيب العقل الجماعى بمثل البلادة .. والوجدان الجمعى بمثل الوحشية .. والضمير الجمعى بمثل الغيبوبة .. التى سببها الطغيان الشامل للإيديولوجية المحافظة فى تلك السنوات الحالكة الظلام .

* * *

والحق أن المحافظية ، حتى فى الظروف العادية وبالمنظور العقلى البسيط ، ضد طابئع الأمور .

... حتى لو إستساغ أصحاب الإمتيازات والسلطة والجاه ـ فى قتالهم من أجل المحافظة على نظامهم ـ لو استساغوا ممارسة السياسة وإدارة الدول وإثارة الحروب متحللين من مساءلة الضمير الإنسانى والوازع الأخلاقى (أى متحللين من أى إلتزام إيديولوجى إيجابى) ، ولم يأخذوا فى الإعتبار إلا ثلاثيتهم البراجماتية : « المصالح ـ علاقات القوى ـ النجاح » ... فكيف يمكن أن يغفل عقل بشرى ، أياً كان مستواه ، حقيقة أن التاريخ لم يشهد أبداً ، ولن يشهد أبداً ، شخصية أو جماعة أو دولة ظلت هى الأقوى دائماً ، ومصالحها هى الغالبة دائماً ، ونجاحها مضمون فى كل الأحوال ؟!! .

إن كل عناصر الصيغة الثلاثية البراجماتية (التى يفضلون تعاطيها

وتجريعها للعامة) متغيرات .. فكيف يمكن أن يترتب عليها ثبات؟!!

محال طبعاً .. ولكنهم لا يعرفون التنازل أمام سلطان العقل . فهل نعجب ـ إذن ـ حين نراهم يعترفون فى دائرة معارفهم أن إيديولوجيتهم المحافظة ضد المذاهب العقلانية ـ أى ضد العقل ، وأن كل جهودهم فى الحرب والسياسة والفكر ، منذ الثورة الفرنسية حتى اليوم ، مكرسة لتدمير تراث كل الثورات والأنظمة التى استحدثتها المذاهب العقلانية، الليبرالية والإشتراكية .. فإن تعذر تدميرها تماماً فليكن تشويهها وإفراغها من مضامينها الإنسانية وتوجهاتها العقلانية وإلتزاماتها الأخلاقية ، واستثمار ما يتبقى من شكليات مظهرية لخدمة المصالح الغالبة والقوة الضاربة .

وإذا كانت الإيديولوجية المحافظة ضد طبائع الأمور فى الأحوال العادية ، فالأولى أن يزداد ضعفها ويفتضح أمرها أكثر فى ظروف أزمة النظام الذى تكرس جهودها للدفاع عنه . ومن ثم شهدت السنوات الثلاث (١٩١٤ ـ ١٩١٧) مفارقة صارخة بين الواقع الموضوعى الذى وصلت فيه الأزمة بالنظام إلى حافة الإنهيار من جانب ، بينما الإيديولوجية المحافظة طاغية طغياناً مروعاً من جانب آخر .

وما كانت لهذه المفارقة أن تعيش طويلاً .. فلم يكن طغيان الإيديولوجية المحافظة فى لحظة انهيار نظامها إلا حلاوة روح .

... ذلك أن لحظات انهيار نظام تستميت القوى المحافظة فى الدفاع عنه هى عينها لحظات الفرص النادرة أمام دعاة التغيير . وبقدر حجم الإنهيار يكون اندفاع قوى التغيير .

... أكثر من ذلك ، حين يفلت زمام الأمور من أيدى أصحاب الإمتيازات التى يرعاها النظام المأزوم ، تكون اللحظة مواتية لدعاة الثورة ـ إن وجدوا .. فإن لم

يكونوا موجودين ، فإن اللحظة تخلقهم خلقاً ...

أو - إن كان وجودهم مايزال فى طور جنينى ، فإن اللحظة يمكن أن تنفخ فى صورتهم ليخرجوا من رحم الأحداث عمالقة يعلون نداءات الثورة ويمسكون زمام الإنطلاق والتغيير ...

... وإن كان ركام الدعاية المحافظة قد وارتهم عن العيون ، فإن اللحظة يمكن أن تدفع بهم إلى دائرة الضوء وتجعلهم ملء الأسماع والأبصار .

... وإن كانت قوى الإرهاب الرجعى والقمع الهمجى قد غيبتهم فى السجون والمعتقلات ، فإن اللحظة يمكن أن تحطم الجدران والأغلال .

... بل إن كان الموت قد أبعدهم ومؤامرة الصمت ومحو الذاكرة قد شوهت رسالاتهم أو أهالت السخائم على سيرهم ، فأن اللحظة يمكن أن تُنفض عنهم غبار القبور ، وتعيد إشعال النور فى المبادىء السامية والدعوات العقلانية التى عاشوا وماتوا من أجلها .

وكان فلاديميرا لينين هو رجل اللحظة التاريخية ، لحظة انفجار أزمة النظام العالمى فى مطلع هذا القرن .. فى تلك اللحظة خرج لينين من مكانه المتواضع كقائد للبلاشفة ، الذين لم يكونوا سوى أقلية فى الحزب الإشتراكى الديموقراطى الروسى ، وهو نفسه حزب ذو مرتبة متواضعة فى الأممية الإشتراكية الثانية - خرج ليلعب الدور الأول فى قب الأحداث العالمية الكبرى .. وليكون على القمة وفى المقدمة .. وأصبح هو الرجل الذى - تحت قيادته - إنتهت المفارقة الصارخة بين سقوط النظام العالمى وصعود إيديولوجيته ، وتم تصحيح مسار التاريخ لينسجم الواقع الإقتصادى الإجتماعى مع المناخ الإيديولوجى العام .

بل إننا نستطيع أن نقول إن لينين لم يكن رجل اللحظة فحسب ، إنما هو

ـ بحق ـ رجل القرن العشرين .

منذ قاد لينين الجناح البلشفى للإشتراكيين الروس فى مستهل القرن ، وبعث روحاً جديدة فى تراث ماركس الفكرى والفلسفى ، وأحيا المضمون الثورى للإشتراكية العلمية ، وتحدى القيادات العتيدة لأحزاب الأممية الثانية الغرب أوروبية .. ثم قاد ثورتين كبرتين فى روسيا فى عام واحد (١٩١٧) ، (١٩١٨)ثم أسّس الأممية الثالثة (١٩١٩) ، وقاد حرب مقاومة بطولية للدولة الإشتراكية الوليدة ضد أربعة عشر دولة ، على رأسها الدول الكبرى : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ... منذ هذه الأحداث الكبرى ، والتاريخ شاهد على أن جميع الثورات الإجتماعية السياسية التى انتصرت فى هذا القرن ، على النطاق العالمى ، هى تلك التى آلت قيادتها إلى أيدى الماركسيين اللينيين ... بعد أن كان الليبراليون الراديكاليون والإشتراكيون الديموقراطيين قد تخلوا عن حمل رايات الثورة ، بل وانحاز غالبيتهم إلى خصومها .

ومنذ ١٩١٧ ، لم يعد للقوى المحافظة فى العالم سوى هاجس واحد ، هو القضاء على الماركسية اللينينة ... مثلما كان الهاجس ، بعد الثورة الفرنسية وطيلة القرن التاسع عشر هو القضاء على الليبرالية الراديكالية .

* * *

إنتقلت الإشتراكية العلمية ـ إذن ـ من مرحلة « ماركسية ماركس ـ إنجلز » إلى مرحلة الماركسية اللينينة ، أو ما عرف باسم الشيوعية . وعنذ هذا المنعطف الحاسم فى التاريخ الإيديولوجى للعالم الحديث ، نلفت الإنتباه إلى الملاحظات الآتية :

* المواقف والأدوار التاريخية التى قام بها لينين والبلاشفة لم تكن بفضل صفات ذاتية متميزة فحسب ، من نوع الجسارة الفكرية ، والتجرد الثورى ونفاذ

البصيرة التاريخية ، واتساق الأعمال والأقوال ... إلى آخر هذه الصفات التى تميز ثوار التاريخ الكبار .. إنما كانت نابعة ، بالدرجة الأولى ، من صدق الإستجابة للضرورات الموضوعية فى روسيا بالتحديد . فروسيا كانت دولة فقيرة ومتخلفة بالقياس إلى دول الغرب الصناعية المتقدمة . ولم يكن العمال والفلاحون الروس ، ولا الإشتراكيون، ولا حتى الليبراليون المتوائمون ، لم يكن أحد من هؤلاء يتمتع بشيء من البحبوحة الحياتية أو الحريات السياسية النسبية التى كان يستمتع بها نظراؤهم فى الغرب ، حيث مكن ثراء النظام وخبرته الطويلة فى استخدام الديموقراطية ، مكن الرأسمالية من تقديم الرشاوى الجمعية لطبقاتهم الدنيا ، واستمالة القيادات الليبرالية والإشتراكية الديمقراطية ، واحتواء خطر الثورة فى بلادهم ، وإن كان للينين والبلاشفة فضل (*من وجهة النظر الثورية) فهو يتلخص فى أنهم كانوا أقدر الفرق السياسية فى زمانهم على التعبير عن واقع بلادهم ، وضرورات التغيير (والثورة) فيها ويشهد لهم التاريخ ، كذلك بشدة حرصهم على وحدة أراضى روسيا الإمبراطورية ، ومن ثم وضعوا نصب عيونهم ألا تؤدى الثورة إلى تفكيك هذا الكيان الهائل ، واحتلت أفكار لينين عن تحرير المستعمرات والقوميات المضطهدة مكاناً هاماً فى الفكر الشيوعى البلشفى ، وضمن للإتحاد السوفيتى (حتى الخمسينات على الأقل) عمقاً إستراتيجياً هائلاً فى قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

* فى تقدير كاتب هذه السطور ، أن الكرة الأرضية تشهد فى أيامنا هذه (١٩٩١) ، أيام الحملة الأمريكية لتدمير العراق والكويت، وإذلال العرب وتحجيم ألمانيا واليابان .. تشهد لحظة تاريخية أشد إظلاماً من لحظة نشوب الحرب العالمية الأولى ، والأيديولوجية المحافظة أشد طغياناً وأوسع انتشاراً بفضل الهيمنة العالمية لشبكات التليفزيون الأمريكية وملحقاتها . ومن بين

نقاط التشابه بين أمس واليوم أننا نرى غالبية المشتغلين بالفكر السياسى والقضايا والفلسفات الإنسانية يتصرفون تصرفات لا تميزهم عن الكتبة المحترفين والمهيجين السياسيين النظاميين ، لا يرون أبعد من تفاصيل يومهم ، فضلاً عن أن المصالح والمكاسب الشخصية هى شغلهم الشاغل .

وكلمتنا إلى من بقى منهم مقتنعاً (أمام نفسه أولاً) أن مايزال له دور كمفكر ، هى أن يبدأ بالحذر من الإنسياق وراء الجوقات الصاخبة المفضوحة الهوية ، وأن يعطى نفسه فرصة لتعمق الأمور ليرى أبعد ـ ولو قيلاً ـ من المظاهر الخادعة والإنتصارات المؤقتة . على أهل الفكر ألا يخضعوا ـ فى مشكلات الفكر ـ لآليات السوق وشكليات الأغلبية والأقلية . عليهم ، لكى يكونوا جديرين بصفتهم كمفكرين ، أن ينشغلوا بالكشف عن الجوانب الأكثر خفاءً فى الواقع الموضوعى ، وعن تناقضاته الملموسة تحت الركام الدعائى ... وعليهم ألا يفقدوا الذاكرة التاريخية والبصيرة المستقبلية ، وأن يحرصوا على مواصلة دورهم كحفظة للتراث الإيجابى للفكر والفلسفات الإنسانية .

ومن هذا المنطلق ، فإننا ندعو ألا يندهش البعض من أن يذكر أحد الماركسية اللينينية (فى هذه الأيام الحالكة الظلام) بكلام إيجابى .. كلام فيه تقدير لدورها ، وذكر طيب لمؤسسها وقائدها الأول ، فلاديمير لينين .. حتى لو كان هذا الكلام يتعلق بالتاريخ (فنحن فى وقت وصل فيه غرور القوة بالمحافظية الأمريكية إلى حد تصور أنها قادرة على إنهاء التاريخ ومحو الذاكرة التاريخية لكل الأمم والشعوب) . وكثير ممن أعنيهم كتبوا فى مناقب الماركسية اللينينية أضعاف أضعاف ماكتب كاتب هذه السطور .

* يمكن أن نفترض أنه ، فى عام ١٩١٤ ، وجد نفر قليل العدد بقى من الليبراليين الراديكاليين ، الذين ظلوا متمسكين بإيمان مثالى بليبرالية « الحرية

والإخاء والمساواة .. » ويمكن أن نفترض أنهم تصوروا أن إنهاض الليبرالية الراديكالية (من عثراتها التى نالت منها بعد روبسبير) يمكن أن يخرج عالم ١٩١٤ من أزمته .... من السهل ، بعد التجارب التاريخية للقرن العشرين ، أن نقول اليوم إن مثل هذه التصور ـ إن كان قد حدث ـ خاطىء ، ومثالى . فما كان يُخرج العالم من أزمته إلا إيديولوجية مختلفة اختلافاً نوعياً عن الليبرالية الراديكالية . وبالمقارنة بين أمس واليوم :

يمكن أن نفترض أنه فى الزمن الحالى يوجد عدد ، بالتأكذ أنه كبير نسبياً ، من الماركسيين اللينينيين ، الذين يتصورون أن إحياء الماركسية اللينينية (بالرجوع إلى النصوص الأصلية والإسترشاد بتجاربها فى عصرها الذهبى) هو الطريق للخروج بعالم اليوم من أزمته.

وفى رأينا أن هذا التصور خاطىء أيضا . فمثل ماكان عالم ١٩١٤ بحاجة إلى إيديولوجية مختفة إختلافاً نوعياً عن الليبرالية الراديكالية ، فإن عالم ١٩٩١ بحاجة إلى إيديولوجية مختلفة إختلافا نوعياً عن الماركسية اللينينية ، وإن تكن فى جوهرها استمرار للتقاليد الإنسانية والعقلانية .

* * *

والآن ، ننتقل إلى شرح الظروف التاريخية التى فجرت أزمة النظام العالمى فى أوائل القرن العشرين ، ودور لينين فى الكشف عن تناقضاته ، والدعوة إلى الثورة الإشتراكية .

حين لم تكن الرأسمالية قد تطورت بعد إلى مرحلتها الإمبريالية ، وحين كانت الإشتراكية ماتزال حلماً فى خيال قادة الأممية الإشتراكية الأولى ثم الأممية الثانية ، منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى مستهل هذا القرن ، كان ماركس والماركسيون من بعده يرون أن التناقض بين العمل ورأس المال هو الذى سينهى

النظام الرأسمالى .. وأن ذلك سيتم من خلال الصراع الطبقى بين الرأسمالية والبرليتاريا (أى العمال الصناعيين) ، يتصاعد فيه كفاح العمل ضد رأس المال من أشكال تلقائية بدائية متفرقة إلى أشكال اقتصادية نقابية منظمة ، ترقى إلى أشكال سياسية ثورية .. تتوج بثورة عمالية تقضى على نظام الحكم الرأسمالى (البورجوازى) ، وتقيم النظام الإشتراكى على أنقاضه .

وكان ماركس يرى أن رأس المال لا وطن له ، فالرأسماليون من كل جنس ينشطون فى أوطان الآخرين بحثاً عن فرص للإستثمار وجنى الأرباح . ويتجاوز نشاطهم الجوانب الإقتصادية إلى الجانب السياسى ، يتعقبون الحركات العمالية أينما نهضت ليخمدوها ، وثورات الشعوب المستضعفة والقوميات المضطهدة ليقمعوها . ومن ثم كان نداء ماركس والماركسيين : « ياعمال العالم اتحدوا » .. ذلك النداء الذى يدعو كل عمال العالم للتوحد فى النضال ضد كل رأسماليى العالم ـ الموحدين فعلاً فى عملية استغلال العمال وتحطيم الحركة النقابية وقمع ثورات الشعوب والأمم المستضعفة ، ليس فقط على الصعيد القومى ، وإنما أيضاً على الصعيد العالمى .

ولأن عالم كارل ماركس كان عالماً أوروبياً محدوداً ، ولأن عمال الصناعة الحديثة لم يكن لهم وجود اجتماعى وسياسى ذو شأن إلا فى عدد صغير من بلاد أوروبا الغربية التى كانت قد أنجزت ثورتها الصناعية .. فإن « عمال العالم» فى ذهن كارل ماركس وكتاباته ، كما فى ذهن قيادات الأممية الإشتراكية الأولى (وحتى الأممية الثانية حتى أوائل القرن) لم يكونوا سوى عمال عدد محدود ، يعد على الأصابع ، من البلاد الصناعية فى الغرب الرأسمالى .

ولكن ، بين بيان ماركس الشيوعى وكتاب لينين عن الإمبريالية ، كان قد مضى من الزمان حوالى سبعين عاماً ، فى أثنائها كانت قد اتسعت دائرة

الثورة الصناعية لتشمل أضعاف عدد البلاد والمناطق التى كانت على أيام ماركس ، وأصبح فيها حركات عمالية نشيطة وقيادات اشتراكية واعدة .. تضارع - فكرياً ونضالياً - نظائرها فى الغرب الصناعى المتقدم .

وكانت روسيا ، التى تعنينا بصفة خاصة فى هذا السياق ، من بين هذه البلاد .

بالمقاييس العصرية (البورجوازية) لم يكن يختلف اثنان على أن النظام الإقتصادى الإجتماعى فى روسيا كان نظاماً متخلفاً بالقياس إلى دول الغرب الصناعى المتقدم . ولكن الإرادة الثورية والحس السياسى المرهف ـ عند لينين والبلاشفة من حوله - أوحيا إليهم بأن « الحالة الثورية » فى بلدهم أكثر تطوراً ، هذا الحس (أو الحدس) هو أساس الإجتهادات الفكرية التى قامت عليها منظومة لينين النظرية المتكاملة ، وهدفها إثبات أن الطبقة العاملة الروسية هى التى ستبادر بتفجير ثورة « عمال العالم » ، وتعبئة طلائعها (البلشفية) للنهوض بهذه المهمة. ولكتاب « الإمبريالية ، أعلى مراحل الرأسمالية » مكان خاص فى هذه المنظومة الفكرية ، إذ كتبه لينين والإيديولوجية الإمبريالية المحافظة طاغية طغياناً شاملاً ، مستولية على الأمم الأوروبية جميعاً ، بل على الأغلبية الساحقة من قيادات الأممية الإشتراكية ذاتها ..إلى درجة أن تروتسكى كتب فى ذلك الحين يقول إن عدد الأمميين الحقيقيين فى العالم (أى أولئك الذين وقفوا ضد الحرب الإمبريالية ودعوا إلى الثورة) كان يمكن وضعهم جميعاً فى عربة قطار واحدة !!

تجاوز لينين فكرة أن التنافس بين العمل ورأس المال فى عدد محدود من البلاد الصناعية فى الغرب هو الذى سيفضى إلى القضاء على الرأسمالية . ورأى أن النظام الرأسمالى فى القرن العشرين أصبح أوسع وأكثر عالمية مما كان

فى القرن الماضى .. وفى نفس الوقت تزايدت تناقضاته الأساسية فلم تعد قاصرة على التناقض بين العمال والرأسماليين ، كما اشتدت حدتها لتصل إلى درجة الإنفجار :

(١) تفاقم الصراع بين العمال والرأسماليين فى البلاد الصناعية وأصبح خطر الثورة الإشتراكية ماثلاً .

(٢) وصل التناقض فيما بين الدول الرأسمالية الكبرى (الإمبريالية) وتناحرها من أجل الأسواق والمستعمرات إلى درجة الحرب العالمية .

(٣) تعاظمت قوة الحركات القومية وحركات التحرر الوطنى إلى أبعاد غير مسبوقة .

ورأى لينين مستقبل الثورة الرشتراكية فى الإطار العالمى الأشمل ، وليس فى الأطر القومية لعدد من البلاد الرأسمالية الصناعية الكبرى . وشبه النظام الرأسمالى العالمى (فى مرحلته الإمبرالية) بسلسلة واحدة تتكون من حلقات متعددة ، ورأى إمكانية تحطيم هذه السلسلة فى أضعف حلقاتها ، أى إمكانية أن تبدأ ثورة عمال العالم فى البلد الذى تصل فيه مجموع التناقضات الثلاث إلى درجة من الحدة تفوق جملة هذه التناقضات فى أى بلد آخر . ورأى أن مثل هذا البلد لا يشترط أن يكون واحداً من البلاد الصناعية الغربية الأكثر تقدماً . بل إن لينين لم يضع نظريته عن الثورة فى أضعف الحلقات إلا لأن روسيا ـ بالذات ـ هى التى كانت ملء عقله ووجدانه .

حين قامت الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٤ ، رأى المؤرخون البورجوازيون ـ من مختلف الإتجاهات المحافظة التقليدية ـ أن نشوب تلك الحرب ، مع إمتداد أوارها بسرعة لتصبح حرباً عالمية ، لم يكن سوى نتيجة لعدد غير قليل من الأخطاء المؤسفة وسوء الفهم المتبادل والتداعيات غير المحسوبة.. التى وقع فيها

رجال الدولة والقادة العسكريون فى الدول الأوروبية الكبرى على أثر حادث هامشى وبسيط نسبياً - هو اغتيال ولى عهد الإمبراطورية النمساوية الهنغارية على أيدى نفر من أبناء إحدى القوميات المضطهدة فى البلقان ، وما صاحب هذا الحادث من تحريك الشكوك والريب بين الحكومات المعنية ، ثم تفجر مشاعر الحقد والكراهية بين الدول فى أعقابه .

ومن كان يدعى معرفة بالتاريخ ، من بين المثقفين البورجوازيين ، لم يكن يستطيع أن يرى أكثر من أن حرب ١٩١٤ لم تكن إلا طبعة جديدة ، وموسعة ، من حرب ١٨٧٠ . كانوا يرون أن الأمة الألمانية ، التى أنجزت وحدتها متأخرة فى ١٨٦٦ ، أرادت بحربها ضد فرنسا بعد الوحدة بأربعة أعوام، أن تعلن عن تفوقها القومى وتُعلى مكانتها كدولة عصرية بين الأمم الأوروبية التى سبقتها إلى الوحدة القومية والحداثة .. أما وقد زادت هذه الأمة ثراءً وقوة بمعدلات فاقت غيرها من القومى الكبرى «القديمة»، فإنها أرادت - بحرب ١٩١٤ - أن تنتزع مكانها كقوة استعمارية « عالمية »، وليس كقوة أوروبية « إقليمية » فحسب .

أما المفكرون والسياسيون الإشتراكيون الراديكاليون ، الذين كانوا مايزالون على ولاء للماركسية ، فقد كان لهم رأى آخر ، وصياغة أخرى - تضع الرأى فى سياق أوسع ، هو نظريتهم عن ضرورة إنهاء الرأسمالية وقيام الإشتراكية على أنقاضها . كانوا يرون أن حرب ١٩١٤ كانت الدليل . الذى مابعده دليل ، على وصول تناقضات النظام الرأسمالى (الإمبريالى) العالمى إلى درجة من الحدة بحيث أصبح من المستحيل أن تحل بالطرق السلمية . ومن بين هؤلاء المفكرين ، انفرد لينين بفكرة أكثر ماتكون جرأة ونفاذ بصيرة ، حيث ذهب إلى أن التناقضات الإمبريالية ، وقد وصلت إلى هذه الدرجة من الحدة ،

دليل على أن النظام الرأسمالى العالمى قد دخل فى « أزمة وجود » . ومن ثم كانت مقولته الشهيرة إن « الإمبريالية هى الرأسمالية المحتضرة » !! .

لم يقلها لينين فى اندفاع غير محسوب أو فى لحظة حماس بلا تدبر ، إنما هو قالها ، وأصّلها وفصّلها ، ورتب عليها نتائج عالمية وحدد مهمات نضال يومية .. متى ؟ .. فى عام ١٩١٦ . فى غمرة ظلام دامس وهمجية شاملة ، وقت كانت الأمم الأوروبية المتمدينة (والطلائع البروليتارية المغيبة) تذبح بعضها بعضاً بالملايين وهى تردد شعارات قاتليهم وترفع رايات مستعبديهم .. بينما يمكن وضع الأمميين الحقيقيين فى عربة قطار واحدة !! .

وقت أن قالها لينين ، لم تكن تزيد ـ فى نظر الأغلبية الساحقة من المشتغلين بالفكر السياسى ـ عن كونها إحدى الشطحات الطائشة لقائد غير معروف إلا لحفنة من الثوريين المطاردين فى بلد لم يكن بعد من البلاد القادرة على إنتاج أفكار طلائعية ذات آفاق عالمية .

ولكن قيام الثورة الروسية فى العام التالى مباشرة جعل العالم كله يتذكر هذه المقولة ، التى سرعان ما ارتفعت ـ فى عقل ووجدان مئات الملايين من مستضعفى الأرض ـ إلى مستوى النبوءة الكبرى للقرن العشرين .

أما الإمبرياليون فقد جاءهم اليقين بأن معاركهم الفاصلة قد بدأت، فأُعلنت حالة الإستنفاد القصوى فى معسكرات « المحافظية الغربية الحديثة » ، وهى ماتزال معلنة حتى اليوم .

بعد نجاح ثورة أكتوبر ، استعاد المناضلون من أجل الإشتراكية والتحرر الوطنى الثقة فى أن المستقبل لهم .. وبدأوا يهاجرون ـ بالملايين، من صفوف الأحزاب والحركات الليبرالية والإشتراكية الديموقراطية والنقابية والإتجاهات شبه الثورية .. لينخرطوا فى صفوف أحزاب وتنظيمات جديدة ترفع راية الماركسية

الليننة ، وتنتسب (أو تحظى برعاية) الأممية (الشيوعية) الثالثة .
وتعلقت بهم آمال الكادحين والمستغلين والمستضعفين فى كل بلاد العالم ..
وقادوا (أو اشتركوا فى) عشرات الثورات ومئات من معارك التحرر الوطنى ..
وقدموا من التضحيات والشهداء أكثر مما قدمه غيرهم من كل دعاة التحرر القومى والإجتماعى على مر التاريخ .. وظل نجمهم فى صعود إلى أن ارتفعت أعلامهم على دول تضم أكثر من ثلث سكان العالم ، وهى نسبة قياسية فى زمن قياسى على مر التاريخ المكتوب كله .. وأصبحت زعاماتهم هى أكبر رموز النضال والتضحية والتجرد فى هذا القرن : من لينين الروسى ، إلى ماوتسى تونج الصينى ، وهوشى منه الفيتنامى وشى جيفارا ، قديس أمريكا اللاتينية الثورى ، وهو المثل الأعلى لجيل من شباب العالم هم اليوم فى أهم سنوات العمر .. (ونعتقد أن دورهم للمسك بزمام الأمور فى العالم آت لا ريب فيه) .

... وعلى أثر نجاح الثورة فى روسيا تحت قيادة البلشفيك ، ومن ناحيتهم ، عجل الإمبرياليون بإنهاء الحرب العالمية الأولى . وكان للولايات المتحدة الدور الأساسى فى هذا التعجيل ، إذ حسمت أمرها وأرسلت جنودها وعتادها لترجح كفة انجلترا وفرنسا ، اللتان لو تركا وحدهما ضد ألمانيا لأمتدت الحرب سنوات وسنوات .

... وقبل أن يجف مداد الهدنة المسلحة فيما بين الإمبرياليين ، الذين أسموها فيما بعد صلحاً وسلاماً ، بدأوا :

(١) بدأوا حروب التدخل ضد الدولة الإشتراكية فى الإتحاد السوفيتى .

(٢) واستداروا يوجهون حراب جنودهم إلى صدور الفقراء والعمال الثائرين فى داخل بلادهم .

(٣) وفى نفس الوقت بدأوا سلسلة حروب أخرى فى ساحاتهم الخلفية وفيما

وراء البخار (أو بالأحرى هى سلسلة لا تتوقف) من المذابح لقمع حركات التحرر الوطنى فى أقطار العالم المستبعدة .

أى أن الإمبرياليين ، ربما بعد فوات وقت لا يعوض ، بدأوا يخوضون حربهم الحقيقية ضد خصومهم الطبيعيين : قوى الثورة الإشتراكية فى البلاد الصناعية المتقدمة ، وقوى الثورة الوطنية فى المستعمرات ـ خاصة بعد أن إزداد اقتناع الطلائع اليسارية لحركات التحرر الوطنى بالفكرة اللينينية القائلة بأن الثورات الوطنية ليست ـ فى التحليل الأخير ـ سوى مكون أساسى من مكونات الثورة العالمية ، وأن آفاقها المحلية أيضا آفاق اشتراكية .

... وأخيراً وليس آخراً :

(٤) أقامت القيادة الإمبريالية ، البريطانية الفرنسية « عصبة للأمم » لتكون إطاراً مؤسسياً لنظامهم العالمى الجديد .

هذه هى الخطوط العريضة لإستراتيجية الإمبريالية العالمية منذ ثورة أكتوبر ، التى ظلت عناصرها الأساسية سارية طيلة السبعين عاماً التالية .. (مع التعديلات والإضافات التى استوجبتها المستجدات التاريخية ـ طبعا .

الصـــراع الإجتمــاعى فى الإتحــاد الســـوفيتى (١)

حتى محاولة الإنقلاب الفاشل فى الإتحاد السوفيتى (١٩ أغسطس ١٩٩١) . كان الصراع على السلطة فى داخل الدوائر الحاكمة السوفيْتية يعتبر من الشئو ن الداخلية الخالصة . وبعد ذلك بدأ ما يمكن تسميته «تدويل المسألة السوفيتية» .ومن هذه الزاوية بالذات بالإضافة إلى أشياء أخرى ، يكتسب هذا الحدث أهميته البالغة .

قبل ١٩ أغسطس كانت صرعات السلطة تدور فى داخل القشرة العليا لقيادة الحزب الشيوعى الحاكم ، المضفرة فى نسيج واحد ـ محكم وصعب الإختراق ـ مع قيادات الحكومة الإتحادية المركزية والقوات المسلحة وأجهزة الأمن، ـ خاصة المعروفة باسم الـ كى جى بى (وهى ـ تقريباً ـ المخابرات) . وكانت علاقة القوى الخارجية بهذه الصراعات هى علاقة المراقب من بعيد ، الذى غالباً ما يفاجأ بالتغييرات الكبيرة أو الإنقلابات أو الإنقالابات المضادة فى داخل القيادة السوفيتية ـ دون أن تملك هذه القوى أية أدوات للتأثير المباشر فى مسار هذه الصراعات .

أما أدوات التأثير غير المباشر ، فهى من النوع البطىء المفعول الطويل

الأمد . وأهمها : تصعيد حمى سباق التسلح ، ليس فقط للتلويح باستخدام التفوق العسكرى وإنما أيضاً للإستنزاف الإقتصادى ـ تصعيد الضغوط الإقتصادية ، تطبيقاً لإستراتيجية الحصار الإقتصادى المطبقة بإصرار منذ ثورة ١٩١٧ ـ تصعيد وتنويع الحرب الإيديولوجية والإعلامية مع التركيز على تغذية النوازع القومية الإنفصالية وإثارة الشهية الإستهلاكية ، فضلاً عن استثمار المعاناة الحقيقية للطلائع السياسية المناضلة من أجل الحريات المدنية والسياسية ـ وأخيراً وليس آخراً ، التسلل والتخريب المخابراتى الذى كان ينجح ما بين حين وآخر ، فى استثمار بعض عناصر الإثارة مثل ما كان يسمى بالمنشقين والراغبين فى الهجرة .. ولا يفوتنا أن نذكر الدور الكبير الذى دأبت على أدائه ، فى كل هذه الأنشطة ، الأقلية اليهودية القوية النفوذ ، والتى كانت لا تخفى تنسيقها المعلن مع أجهزة المحابرات والإعلام الأمريكية والغربية عموماً .

غير أن الأثر المباشر لمثل هذه الضغوط كان محدوداً . وأقصى ماكان يحدث هو نجاح القوى الخارجية فى الإستغلال الدعائى المبالغ فيه لبعض الأحداث ذات الفرقعات العالية ، مثل هرب بعض الشخصيات الهامة والتجائها للغرب ، أو تعطيل هجرة بعض اليهود إلى أرض فلسطين . وعندما كانت تحدث تغييرات أو إنقلابات هامة (مثل إقصاء أعوان ستالين المقربين وإعدام بيريا بعد وفاة ستالين عام ١٩٥٣ ، أو عزل خروشوف عن قيادة الحزب والدولة عام ١٩٦٤) ، وما يعقبها من ضجة إعلامية فى الغرب ، أو صدور بيان أو تعليق من هذه الجهة الرسمية الأجنبية أو تلك .. فإن القيادة السوفيتية كانت تقابل مثل هذا «التطفل» بما يستحقه من تجاهل وإهمال .

ولكن المنظر ، بعد ١٩ أغسطس ، أصبح مختلفاً اختلافاً تاماً . أصبحت

أخص خصائص صراعات السلطة فى الإتحاد السوفيتى ، وبعض من أهم شئونه الداخلية ، بل ومصيره نفسه (بحدوده الدولية التى ظلت مستقرة أكثر من نصف قرن) ـ أصبحت مطروحة للنقاش بصوت عال فى العواصم الغربية ، وهى ليست مطروحة للنقاش لإستثمارها فى أغراض دعائية فحسب ، وإنما لإتخاذ قرارات عملية بشأنها ، وذلك على نحو أكثر إندفاعاً ، فى بعض الأمور، من الطريقة التى تناقش بها هذه العواصم شئون العراق بعد تدميره فى تلك الحملة المشئومة . بل الأدهى من ذلك ، والأدعى للجزع (من وجهة نظر أى مسئول أياً كان اتجاهه) هو أننا نشهد شخصيات سياسية سوفيتية هامة تدعو القوى الخارجية لمزيد من التدخل فى الشئون السوفيتية الداخلية ، وهى شخصيات أصبحت تقبض على كثير من مفاتيح السلطة ، وهى مستعدة لدفع ثمن التدخل الخارجى ـ حتى لو كان هذا الثمن هو القضاء على الدولة السوفيتية قضاءً تاماً . فما الذى حدث ؟ .

* * *

لا يختلف اثنان على أن الطريقة التى جرى بها إنقلاب ١٩ أغسطس ، والطريقة التى أدار بها الإنقلابيون الأمور أثناء الأيام الثلاثة التى هى كل عمر انقلابهم ، والطريقة التى انتهى بها الإنقلاب ، والطريقة التى تدار بها الأمور بعد فشل الإنقلاب (وحتى كتابة هذه السطور) .. نقول إنه لا يختلف اثنان على أن كل هذه دلائل ، على أن قيادة الدولة السوفيتية ـ منذ ١٩ أغسطس ـ تمر بحالة من الإنهيار والتحلل النادرة الحدوث .

التحلل والإنهيار فى جميع الإتجاهات وعلى كافة الأجهزة و الأصعدة. انحلت تلك الضفيرة التى كانت تضم القيادات الحزبية والحكومية والعسكرية والأمنية فى نسيج واحد . تفكك النسيج وأصبحت المكونات تفتقر إلى الحد

الأدنى من التنسيق فيا بينها ، بما يحفظ للدولة ماتحتاجه من تماسك وهيبة . بل إن المستويات القيادية فى كل منها أصبح معلقاً ومعزولاً عن المستويات الدنيا ، وأصبح من الصعب معرفة من فى الدولة مسئول عن ماذا ؟ وفقدت السلطة المركزية نفوذها على ماكان يسمى بالجمهوديات الإتحادية ، حيث تقفز إلى الصدارة مظاهر الهياج القومى وتطغى المصالح المحلية والنزعات الإنفصالية . وتتسابق الجمهوريات فى إعلان أنماط من الإستقلال ، وبعضها (دويلات البلطيق) تنفصل نهائياً عن الإتحاد . وتسير الأخريات فى نفس الطريق ، كل على هواها .. بينما يقف المدافعون عن بقاء مابقى من الإتحاد موقف العاجز اليائس ... إلخ ... إلخ .

وقبل كل مظاهر التحلل هذه ، بل إنه أهمها والأساس فيها ، يستشرى التحلل الإيديولوجى .. ونشهد التبخر المفاجىء فى صفوف الأغلبية الساحقة للجماعات المتناحرة على السلطة ــ نشهد التبخر المفاجىء لأى ولاء للعقيدة الشيوعية ، الماركسية اللينينية ، التى كانوا جميعاً ، حتى الأمس القريب جداً ، يؤكدون أنها هى القوة التى كانت توحدهم ، وتوثق عرى التآخى بين قومياتهم ، وتحدد إطار القيم الإنسانية والأخلاقية لمجتمعهم . أكثر من هذا ، حين تعلن الفرق المتصارعة على السلطة عن قناعات سياسية /إيديولوجية «جديدة» ، مثل (الديموقراطية أو الليبرالية أو المسيحية .. إلخ) فإنها تتوجه بإعلاناتها ــ أساساً ــ للقوى الخارجية سعياً لكسب رضاها واستجداءً لدعمها .

مثل هذه الحال من الإنهيار والتحلل لا تحدث فى تاريخ الدول ، عادة، إلا بسبب هزيمة حربية ماحقه . (ولكل حال خصوصيتها بالطبع) . ومن أمثلة ذلك ماحدث مرتين فى ألمانيا فى هذا القرن ، الأولى عام ١٩١٨ بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، والثانية عام ١٩٤٥ ، بعد هزيمتها فى الحرب العالمية

الثانية ، بل إننا شهدنا ، بسبب هزيمة ١٩٦٧ ، تجربتنا الخاصة التى من هذا النوع .

ولكن ، ثمة فرق أساسى بين الحالة الألمانية فى الحربين العالميتين والحالة السوفيتية الراهنة ، ذلك أن ألمانيا دولة متجانسة عرقياً وقومياً، بينما الإتحاد السوفيتى دولة متعددة القوميات . ومن هذه الزاوية ، فإن الحالة السوفيتية الراهنة أقرب إلى الحالة التى كانت عليها كل من الإمبراطورية النمساوية الهنغارية والدولة العثمانية غداة هزيمتيهما فى الحرب العالمية الأولى .

يمكن القول ، أذن ، إن الطبقة الحاكمة فى الإتحاد السوفيتى خاضت حرباً كبرى وهزمت فيها هزيمة ماحقة ، وتلك هى الحرب الباردة. وبدلاً من أن تعزو هذه الطبقة أسباب الهزيمة إلى الأخطاء التاريخية المتراكمة التى ارتكبتها فى حق الشعوب السوفيتية وطبقاتها الكادحة ومثقفيها المستنيرين ـ (تلك الأخطاء التى ضاعفت عبء الظروف الشديدة القسوة التى أحاطت بالتجربة السوفيتية منذ كانت ثورة إلى أن خلقت دولة كبرى) ... وبدلاً من أن تسعى هذه الطبقة ـ قبل فوات الوقت ـ إلى تصحيح أخطائها التاريخية تصحيحا رشيداً وخيراً ، فتقبل ـ بجدية وصدق ـ بانتهاج طريق ديموقراطى اشتراكى أصيل ، يسمح بإشراك ممثلى الشعب وطلائعه المستنيرة اشراكاً متعاظماً فى إدارة شئون الحكم والإقتصاد ، ويعيد إلى الجهاز الإنتاجى كفاءته وإلى المنتجين /المستهلكين حقوقهم ... بدلاً من هذا وذاك فإن الطبقة الحاكمة السوفيتية ، شأنها شأن كل الطبقات التى تتمتع بإمتيازات غير مبررة ، تختار طريق النفاق اللاأخلاقى ، تتراجع أمام الضغوط المطالبة بالديموقراطية بينما تحاول كسب الوقت وتضمر النية على الغدر ، وتنخرط فى صراعاتها العقيمة من أجل السلطة موهمة الجماهير بأن هذه الصراعات هى قضيتها ... وإذ يرى

هذا الفريق أو ذاك أن الأمور يمكن أن تفلت من يديه ، فإنه لا يتردد فى طلب النجاة والنجدة من الطبقات الحاكمة فى الغرب ، آملاً فى استمرار استعباد الشعوب السوفيتية (وإن يكن باستخدام أساليب تكنولوجية وإدارية أكثر كفاءة) ، واقتسام عائد جهدها ـ لأجيال عديدة أخرى ـ مع سادة النظام الرأسمالى العالمى ، بعد أن عجزت هذه الطبقة عن الإستمرار فى هذه العملية وحدها ، بأساليبها العتيقة ونفوذها الزائل .

.. ولكن ، بحسن أن نتأمل الأمور بشىء من الروية !!

* * *

نبدأ القول بأن صراعات السلطة فى أية دولة هى من طبائع الأمور وفى أية دولة تدار شئونها على أسس عقلانية ، يعمل المشرعون الدستوريون حساباً لإحتواء هذه الصراعات ، ويرسمون تخطيطاً افتراضياً لإدارتها فى الأطر القانونية القائمة . وفى الأحوال العادية ، أى عندما تكون علاقات القوى بين الطبقات الإجتماعية مستقرة ، تدور هذه الصراعات على نحو هادىء وسلمى .. تتغير ، بين حين وآخر ، أشخاص الحكام وكبار المسئولين ... وفى البلاد التى تأخذ بالتعددية ، تتداول الأحزاب إدارة شئون الحكم .. وتتخذ إجراءات أو إصلاحات ذات طابع تقدمى أو ذات طابع محافظ ، بينما الخطوط العامة للنظام والأبنية الأساسية للدولة تظل على حالها .

... ولكن ، يمكن أن تتراكم عوامل التغيير (الإجتماعى /السياسى/المحلى/العالمى ...) ، وتتجاوز قدرة المؤسسات الدستورية القائمة على الإحتواء ، و قدرة القيادة الحاكمة على الإستجابة الموفقة . عندئذ تحدث أزمة حكم . فإن لم يجر تداركها وإصلاح الأحوال قبل فوات الآوان ، تتحول أزمة الحكم إلى أزمة للنظام القائم بكل مكوناته وأسسه .. وإذا استمرت الأزمة

يمكن أن يحدث الإنهيار ، الذى يقابل أحياناً بإنقلاب تحاول فيه القوى المحافظة دعم الأسس المتداعية للنظام ، أو قد تنجح قوى التغيير الراديكالية فى إنجاز ثورة تتجاوز التركيبة الإجتماعية السياسية القديمة ، وتقيم نظاماً جديداً . أو (إن كانت توازنات القوى ماتزال حرجة) ، يمكن أن يجرى انقلاب على الإنقلاب، فتظل الأحوال على ميوعتها لفترة من الزمن . وتلك ـ كما نرى ـ هى أحوال الإتحاد السوفيتى اليوم ـ أى بعد فشل انقلاب ١٩ أغسطس .

وتاريخ صراع السلطة فى الإتحاد السوفيتى قديم قدم الدولة السوفيتية . ودراسة تاريخ هذا الصراع يخرج عن نطاق هذا المقال ، وإنما نكتفى ـ هنا ـ بحديث مركز عن تلك الجولة من هذا الصراع الذى كان انقلاب ١٩ أغسطس خاتمة مأساوية لها .

ولأن الكلمات ـ فى ظروف التشويش الفكرى الراهنة ـ أصبحت غالباً ما تستخدم استخداماً مغلوطاً ، فإننا سنورد ، كلما أمكن ، تعريفنا لأهم عناصر هذا الصراع . ولن تكون تعريفاتنا جامعة مانعة ، (فهذا أيضاً يخرج عن نطاق مقالنا) ، وإنما سنورد منها ماله علاقة مباشرة بموضوعنا .

* * *

من أكثر الكلمات تداولاً فى هذا الخصوص : المحافظون ، الإصلاحيون ، الثوريون . والمحافظون ، بالمعنى السياسى للكلمة ، هم أولئك الذين يريدون ، ويعملون بوعى ، على المحافظة (أو الإبقاء) على الأوضاع الإجتماعية السياسية القائمة ، لأن لهم مصلحة فى المحافظة عليها .. وذلك فى مواجهة دعاة التغيير بصفة عامة ، ودعاة التغيير الجذرى (أو الراديكالى) خاصة ، وهؤلاء هم الثوريون .

ولكن المحافظين ليسوا متجانسين .. فمن بينهم محافظون متشددون

(أو راديكاليون) ومحافظون إصلاحيون .

يرفض المحافظون المتشددون ، ويقاومون ، أية إصلاحات اقتصادية إجتماعية ، أو تغييرات تشريعية قانونية ، أو تطوير حضارى ثقافى ، خشية أن تستفيد منها قوى التغيير الثورى . بل إن كثيراً منهم يرى أنه إذا كان لابد من تغيير ، فليكن فى إتجاه الرجوع إلى الماضى ، وهم لا يبخلون بجهد أو قت لتمجيد ماكان ـ والمناداة بالرجوع إليه . وهؤلاء يصعب تمييزهم بالمعنى السياسى والإيديولوجى عن الرجعيين . وقد شهد العالم ، منذ أواخر السبعينات ، نمواً كبيراً لإتجاهات وجماعات تدعو إلى ذلك ، وبعضها يحقق «تقدماً» ملحوظاً فى إتجاه «الرجوع».. من أمثلة ذلك إقامة حكومة من رجال الدين فى ايران ومحاولة الرجوع إلى حكم الأمراء والقياصرة فى روسيا ..

أما المحافظون الإصلاحيون فإنهم أكثر صلة بحقائق العالم المعاصر الذى يشهد تغييرات سريعة يصعب توقعها والتحكم فى مساراتها ، ومن ثم فإنهم يقبلون بإجراء إصلاحات واستحداث تجديدات فى جميع المجالات، بإعتبارها ضرورة لا مناص منها (أو هى ـ فى نظرهم ـ شر لابد منه) . وبفضل مايتميزون به من ذكاء سياسى اجتماعى (بالقياس إلى إخوانهم المحافظين المتشددين) ، فإنهم لا يعاندون قوى التغيير إلى الحد الذى يفقد النظام ما يجب أن يتمتع به من مرونة وقدرة على المناورة ـ هذه المرونة التى توظف دائماً لإحتواء قوى التغيير الجذرى ودرء خطر الثورة . وقد أحسن أحدهم التعبير عن دخيلتهم بقوله : « من أجل أن يبقى كل شىء على حاله ، يجب تغيير كل شىء » . والملاحظ أن هذا الشعار تنقصه بعض كلمات للكشف عما ينطوى عليه من دهاء . فصاحبه يعنى أنه من أجل الإبقاء على كل ما هو أساسى وجوهرى (فى البناء الإجتماعى السياسى القائم) ، لابد من القبول بتغيير

ماهو غير أساسى وغير جوهرى .

والمحافظون الإصلاحيون ، عادة براجماتيون (بمعنى أنه ليست عندهم مبادىء محددة أو مثل عاليا مجردة يتشبثون بها) . ولكن يمكن أن توجد بينهم اتجاهات شبه عقائدية (توجه خطابها السياسى الإيديولوجى أساساً للطبقة المتوسطة) ترى أن أى تغيير أو تطور أو إصلاح إنما يؤكد ـ فى كل الظروف ، وطالما هو من أجل «الصالح العام» ـ يؤكد سلامة الأسس التى ينبنى عليها النظام الإقتصادى الإجتماعى السائد، ولايخرجه عن نظم القيم المستقرة والتقاليد المرعية والمعتقدات المتوارثة.

على كل حال ، المحافظون الإصلاحيون ، بمختلف اتجاهاتهم وتنويعاتهم ، هم الأقوى والأقدر (من بين القوى المحافظة) على إدارة لعبة الحكم والسياسية ، وفى أيديهم زمام القيادة فى الأحزاب ، والإئتلافات الحزبية الكبرى ، التى تمسك أهم مقاليد السلطة ومفاتيح الثروة فى الغرب الرأسمالى فى القرن العشرين .

على الجانب الآخر ، عند أقصى يسار الطيف السياسى الإيديولوجى ، يوجد الثوريون الراديكاليون (المتشددون) .. هؤلاء الذين يعلنون الخصومة الشاملة مع كل الأوضاع القائمة ، ويناضلون من أجل ثورة تهدم كل أسس النظام القديم ، وتبنى نظاماً جديداً على أنقاضه . وهم يرون أن أية إصلاحات يقبل النظام القيام بها ليست إلا عمليات لترقيع النظام ، وتحسين أدائه ، وإطالة حياته . ومن ثم ، فهم يرفضون «الإصلاحية» ، ويعتبرون الإصلاحيين ، فى جملتهم ، احتياطياً للنظام وخصوماً للثورة . وهم يعتمدون ـ أساساً ـ أساليب نضال خارجة على الأطر الشرعية القائمة ، ولا يقرون من أشكال العمل فى هذه الأطر إلا القليل الذى يعتبرونه ـ فى حالات خاصة وظروف نادرة ـ فى خدمة

الثورة على نحو لا لبس فيه . بإختصار ، هم دعاة استخدام «العنف الثورى» فى المواجهات الحاسمة مع النظام ، كما أنهم يفضلون أساليب العمل خارج الأطر الشرعية القائمة فى كل الظروف .

ولكن ، من بين اليساريين من يرى أن من الإصلاحات مالايتناقض مع الثورة . ومن استقراء تاريخ هؤلاء اليساريين الإصلاحيين نستطيع أن نتبين أنهم يضعون لهذه الإصلاحات شروطاً ، من أهمها : أن تكون هذه الإصلاحات ثمرة لنضال واع تقوم به الجماهير الشعبية ، بمعنى ألا تكون فى هيئة منحة تقدمها الطبقات وتجود بها على الرعية وقت تشاء ، ويمكن أن تسلبها إياهم وقت تشاء . وثانيا ، أن تقر هذه الإصلاحات تشريعياً ، لتصبح حقوقاً قانونية ملزمة لجميع الأطراف (العاملين ، أصحاب الأعمال ، الإدارة ، الأمن، المستهلكين، مجموع المواطنين ..) .. والأهم من كل ذلك ، أن يكون الممثلون الحقيقيون للفئات الشعبية التى يعنيها الأمر طرفاً أساسياً فى الهيئات المسئولة عن وضع هذه الإصلاحات موضع التنفيذ ، وأن تتجدد هذه المسئولية ويتجدد التفويض الشعبى من أجل الرقابة والتطوير وتصحيح المسار .. لضمان ألا تتحول الأجهزة الإدارية المسئولة عن التنفيذ إلى أداة للإنتكاس على هذه الإصلاحات ، أى ـ أن تتحول إلى بيروقراطية متسلطة .

بإختصار ، الديمقراطية (بالمعنى الشعبى الشامل الحقيقى) هى الشرط . ويؤكد هؤلاء اليساريون الإصلاحيون الديموقراطيون على أهمية النضال من خلال جميع القنوات الشرعية الممكنة (البرلمان ـ النقابات ـ التنظيمات الجماهيرية والجمعيات الإجتماعية .. إلخ ..) ، ويدعون إلى الإستفادة القصوى من جميع الحريات السياسية والحقوق المدنية المتاحة ، ويحرصون على ألا يكونوا طرفاً أو سبباً فى الإنتقاص من الموجود من هذه الحقوق والحريات .

ولكن ، بين هؤلاء اليساريين ، توجد اتجاهات ترى أن للعمل الإصلاحى فى الأطر الشرعية حدود ، قد لا تجد قوى التغيير اليسارية مناصاً من تجاوزها ، والإقدام على النضال خارج الأطر الشرعية إذا أملت ذلك ضرورات الصراع الإجتماعى السياسى - خاصة وأن الفئات والسلطات الحاكمة كثيراً ماتتجاوز - هى نفسها - الأطر الشرعية القائمة، كلما رأت أن ذلك ضرورى للدفاع عن مصالحها ودرء الخطر عن نظامها .

وعموماً ، نلاحظ أنه فى ظروف احتدام الصراعات الإجتماعية وإتجاه الأطراف المتصارعة إلى الإلتجاء إلى أساليب عمل خارج الأطر الشرعية ، فإن هذا النوع من اليساريين يصعب تمييزهم عن الثوريين الراديكاليين ، ومن ثم يمكن أن يتخذ هذا الإتجاه إسم «اليسار الإصلاحى الثورى» . ومنُ الطبيعى ، فى ظروف إندلاع الثورة على النظام القديم، أن يأتلف، أو يتحالف ، الثوريون الراديكاليون والإصلاحيون الثوريون . وهذا ما يشهد به تاريخ الثورات عادة . ولكن التاريخ شاهد أيضاً على أن الإبقاء على هذا التحالف بعد نجاح الثورة أمر شديد الصعوبة ، نادر الحدوث .

ولكن اليسار يحتوى أيضاً على إتجاه أكثر « اعتدالاً » (إن صح التعبير) ، يرى أصحابه أن العمل السياسى يجب ألا يخرج على الأطر الشرعية القانونية فى كل الأحوال . وطبيعى أن يكون هذا النوع من اليسار الإصلاحى المعتدل هو الأقوى والأقدر على ممارسة لعبة السياسة والحكم فى أوروبا الغربية، حيث مايزال للبرلمانية (البورجوازية) مكانتها ، وللحريات السياسية والحقوق المدنية تاريخ طويل وتقاليد راسخة وقيمة عملية لا يمكن التقليل من شأنها ، وحيث - وهذا هو الأهم - ماتزال غالبية الطبقات العاملة تنجذب لهذا النهج ، الذى حققت من خلاله حضوراً سياسياً ومكاسب اقتصادية واجتماعية

معتبرة .

والملاحظ أنه عندما تحتدم الصراعات الإجتماعات ، وتتجه الأطراف المتصارعة إلى الإلتجاء إلى أساليب عمل خارج الأطر الشرعية ، فإنه يصعب التمييز بين مواقف اليساريين الإصلاحيين المعتدلين ومواقف المحافظين الإصلاحيين . وعموماً ، يشهد التاريخ على أن هذين الإتجاهين كانا هنا الدعامتان اللتان قام عليهما النظام السياسى الإيديولوجى فى أوروبا القرن العشرين ، كما يشهد على أن إئتلافهما شبه الدائم كان وراء غالبية هزائم ثورات هذا القرن .

فى الواقع السوفيتى المعاصر ، الذى أفضى إلى الإنقلاب على الإنقلاب، ماهى المدلولات الإجتماعية السياسية لهذه المصطلحات ؟

للإجابة على هذا السؤال ـ نعيد إلى الذاكرة حقيقية أن الواقع الإجتماعى السياسى فى الإتحاد السوفيتى ، منذ تأسيسه غداة ثورة ١٩١٧ ، شكلته العقيدة الشيوعية ، نعنى الشيوعية السوفيتية بالتحديد، أو هى الماركسية اللينينية .

والماركسية اللينينية ، بدورها ، ليست إلا فرعاً من أصل يسارى أوروبى عريض ، وهو ماكانت يسمى منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن، الإشتراكية الديموقراطية ، التى كانت هى اللافتة الموحدة لأحزاب الطبقات العاملة الأوروبية ، وتضمها معاً الأممية الإشتراكية (الثانية) .

منذ منعطف القرن ، كان الخلاف قد بدأ يدب فى صفوف ذلك اليسار الأوروبى ، الإشتراكى الديموقراطى . وهو خلاف سرعان ماتطور ليصبح إنقساماً كبيراً أثر فى مسار التاريخ الأوروبى ، الإشتراكى الديموقراطى. بل التاريخ العالمى كله .. ذلك هو الإنقسام الذى كان قطباه : الثوريون الراديكاليون

(لينين وآخرون) من جانب ، والإشتراكيون الديموقراطيون الإصلاحيون المعتدلون (برنشتين وآخرون) من جانب آخر . وبين القطبين تعددت وتكاثرت الألوان والظلال للإتجاهات والفرق اليسارية المختلفة ، المتدرجة فى درجات ثوريتها ودرجات إصلاحيتها ، واحتدمت الصراعات والمساجلات بين الجميع .

وليست صرعات ومساجلات اليوم ، فى بعض من أهم جوانبها ، إلا استمراراً لما بدأ منذ منعطف القرن ، بعد قطيعة مريرة وخصومة مدمرة استمرت أكثر من سبعين عاماً .

الصــراع الإجتمــاعي في الإتحــاد الســوفيتي (٢)

عند منعطف القرن ، كانت الخلافات قد بدأت تدب ، وتتصاعد ، فى صفوف الإشتراكية الديموقراطين الأوروبين .

لم يكن ثمة خلاف على الهدف البعيد ، وهو إنهاء النظام الرأسمالى بتناقضاته وشروره ، وإقامة نظام جديد مكانه ، بدعامتيه الإشتراكية والديموقراطية ، كلاهما مرتبط بالآخر رباطاً لا ينفصهم . وإنما بدأ الخلاف حول التكتيك ، أي حول أساليب وأهداف النضال السياسى والإقتصادي اليومى . ومع الوقت تحددت نقاط الخلاف ، وتبلورت الإتجاهات وبرزت الزعامات - ليصبح قطباها الأساسيان : الإصلاحيون المعتدلون (اليمين - وأبرز القادة كان برنشتين) ، والثوريون الراديكاليون (اليسار - وأبرزهم لينين) .

يرى الإصلاحيون أن نضال الطبقة العاملة يجب أن يجرى فى الأطر الشرعية للنظام الرأسمالى ، الأطر البرلمانية والنقابية أساساً . وذهبت نسبة كبيرة منهم إلى إنه من خلال هذا النضال يمكن تحقيق مكاسب اقتصادية وتحسناً ملموساً لظروف العمل .. كما يمكن أيضاً - وإن يكن على المدى البعيد - كسب أغلبية برلمانية تمكن أحزاب الطبقة العاملة (الأحزاب الإشتراكية الديموقراطية حينذاك) من تشكيل حكومة وإدارة شئون الدولة . وبذلك يمكن تحقيق الإشتراكية بأساليب سلمية . وطبيعى أن يكون نفوذ الإصلاحيين المعتدلين قوياً فى بعض من بلاد أوروبا الغربية ، حيث كانت الديموقراطية البورجوازية تتيح فرصاً حقيقية للعمل ، فى الأطر السياسية والنقابية الشرعية .

أما الثوريون الراديكاليون فكانوا يرون أن الدولة البورجوازية لا تسمح

بإجراء إصلاحات إلا إذا كانت هذه الإصلاحات توظف لخدمة النظام القائم وتقويته ، وأنه إذا وصلت الإصلاحات ـ بالطرق البرلمانية أو النقابية أو غيرها ـ إلى حد تهديد أسس النظام ، فإن الدولة البورجوازية نفسها ستكون أول من يخرج على الشرعية لقمع حركة الطبقة العاملة وإجهاض مشروعها الإشتراكى . ومن ثم ، فقد رأى الثوريون الراديكاليون أن الإشتراكية لا تتحقق إلا بثورة يكون العنف من بين أساليبها ، إن لم يكن هو أسلوبها الأساسى . أما النضال اليومى للعمال وحزبهم فيجب أن يكون الهدف الأساسى منه هو تمهيد الأرض للقيام بالثورة ، والإعداد لها . ولا مانع من أن يكون النضال اليومى نفسه خارج الأطر الشرعية للنظام . وطبيعى أن يكون نفوذ الثوريين الراديكاليين قوياً فى بعض من بلاد وسط أوروبا وشرقها (بصفة خاصة فى روسيا القيصرية) حيث الإستبداد شبه الإقطاعى كان هو السائد وليست الديموقراطية البورجوازية ، ويكاد هذا الإستبداد أن يسد كل سبيل للنشاط السياسى والإقتصادى فى الأطر الشرعية للنظام القائم .

* * *

مع اقتراب نذر الحرب العالمية الأولى اتسعت الخلافات بين الإصلاحيين والثوريين لتشمل الموقف من الحرب .

ولم يكن صدفة أن نادى اليسار ، بقيادة لينين ، بأن تتخذ الطبقات العاملة الأوروبية وأحزابها الإشتراكية الديموقراطية موقفاً ضد الحرب ، بمعنى أن تحول الحرب بين الدول القومية إلى سلسلة من الثورات والحروب الأهلية ، يواجه فيها عمال كل بلد خصومهم الطبيعيين داخل بلدهم ـ أى رأسماليهم ـ ويتخذون من مصاعب الحرب وأعبائها فرصة مواتية لإلحاق الهزيمة بهم ، وبذلك يختصرون الطريق إلى الثورة الإشتراكية . هذا بينما وقف اليمين الإشتراكى

الديموقراسى ، كل فى بلده ، إلى جانب الحكومات البورجوازية المتحاربة ، ولم يستجب لنداء اليسار بإعلاء الإنتماء الطبقى على واجب الدفاع عن الوطن .

وهكذا ، عندما نشبت الحرب العالمية الأولى تصاعد الخلاف بين اليمين واليسار (فى صفوف الأممية الإشتراكية الديموقراطية ـ الثانية) إلى أن أصبح كل فريق يقف فى معسكر يواجه المعسكر الذى يقف فيه الفريق الآخر بالسلاح.

... ثم نجحت الثورة البلشفية فى روسيا ، تحت قيادة لينين ، عام ١٩١٧ . عندئذ اعتبر لينين وأشياعه أن هذا النجاح كفيل بحسم الخلافات وإنهاء المناقشات السياسية والمساجلات الفكرية . فهاهى الثورة « الإشتراكية » قد نجحت ، وهاهم العمال والفلاحون الروس يشرعون فى بناء المجتمع الإشتراكى على أرض الواقع ... ومن كان جاداً فى النضال من أجل الإشتراكية فليتبع الطريق الثورى الراديكالى ـ الماركسى اللينينى . وتمييزاً لأنفسهم عن الإشتراكيين الديموقراطيين الإصلاحيين، إختار لينين لأشياعه، الذين انقسموا على الأممية الإشتراكية (الثانية)، لافتة جديدة ، هى «الشيوعية» ، وأقام لأحزابهم وتنظيماتهم منبراً دولياً جديداً هو الأممية الشيوعية (الثالثة) عام ١٩١٩ .

ولكن الطريق أمام الدولة السوفيتية لم يكن مفروشاً بالورود . فمنذ الأيام الأولى لتأسيسها أثارت القوى المعادية ، فى جميع أرجاء البلاد إضطرابات ومنازعات وتمردات مسلحة تفوق الحصر ، مستندة إلى أكبر حرب تدخل شهدها هذا القرن ، استمرت أربعة أعوام، وانتهكت أثناءها جيوش أربعة عشر دولة أراضى الإتحاد السوفيتى ، على رأسها حلفاء القرن العشرين الدائمون ، المحظوظون الظالمون : بريطانيا وفرنسا وأمريكا . ومنذ اليوم الأول

(وحتى اليوم) بدأ الحصار الإقتصادى ، وتنظيم وتمويل عمليات الإرهاب الأبيض واغتيال قادة الدولة والحزب (راح لينين نفسه ضحية واحدة منها) ، وشن حرب دعائية تستهدف كل قيم الثورة ومنجزات الدولة ، وحرب مخابراتية شرسة تستخدم كل الوسائل القذرة ، التى فاقت كل ما ارتكب فى أظلم عصور التاريخ وأشدها وحشية ، والتى هى ـ بصدق ـ ميدان «التفوق» الأول لحماة الحضارة الغربية المعاصرة ، وهم أنفسهم لا يخفون فخرهم بهذا التفوق .

وبعد أن كان قادة الثورة الروسية يعولون كثيراً على قيام ثورات عمالية (على النسق البلشفى) فى عدد من بلاد أوروبا الصناعية المتطورة ، خاصة فى ألمانيا ، وقيام سياج من دول اشتراكية حول الدولة السوفيتية ، فإن الذى حدث هو العكس ، فقد واجهت قوى اليمين الحركات العمالية واليسار الشيوعى بقمع لا حدود لقسوته ، وأجهضت مشروع الثورة الإشتراكية فى عدد من البلاد ، أهمها المجر (١٩١٩) وألمانيا (١٩٢٣) ، وأغرقتها فى حمامات دم همجية كانت هى البروفة التاريخية لأنهار الدماء التى أغرق فيها اليمين النازى الفاشى أوروبا فى الحرب العالمية الثانية .

هكذا وجدت الدولة السوفيتية نفسها ، منذ مولدها ، غارقة فى سلسلة جهنمية من الكوارث الإقتصادية والنزاعات الداخلية ، ومحاصرة بأعداء خارجين يفوقونها ـ بعشرات الأضعاف ـ قوة وخبرة وثراء ، ولا يتورعون عن عمل أى شىء لأسقاطها بالضربة القاضية ، أو استنزافها إن استمرت تقاوم وتحاول ، ثم إنهاكها وإهلاكها ... ولم يكن ثمة مناص من مواجهة العدوان العسكرى الخارجى (فى الظروف التعسة التى كان عليها الإقتصاد) إلا بعسكرة الإقتصاد ، بل عسكرة المجتمع كله ... ومواجهة الإهاب الأبيض بإرهاب أحمر .

ولكن ، المتصور أن تكون تلك حال مؤقتة وعابرة . كانت القوى المعادية

تتعجل إسقاط الدولة السوفيتية قبل أن ترسخ قواعدها وتستقر مؤسساتها ، بينما كان قادة الثورة يتصورون ـ فى البداية ـ أنهم إن إستطاعوا أن يصمدوا عاماً أو بضعة أعوام ، فإن الصعوبات ستخف، والمخاطر ستتضاءل ... ولكن ما حدث كان شيئاً مختلفاً .

لا مجال ـ هنا ـ لعرض تاريخ الدولة السوفيتية ، ولكن الثابت أن هذه الدولة صمدت عشرات السنين ، على الرغم من أن الصعوبات لم تخف ، ولا المخاطر تضاءلت .. بل إنها تصاعدت ، خاصة بعد موت لينين ميتته المبكرة ، وأضيفت إلى قائمة المشكلات المستعصية احتدام الصراعات الداخلية فى صفوف الحزب الشيوعى ، مع غياب الزعيم الذى كان قادراً على احتواء الخلافات وتوحيد إرادة الطلائع عن طريق طول النفس فى المساجلات الفكرية ، والمثل الحسن فى الممارسات العملية والسلوك الشخصى .

حدثت ذبذبات وانعطافات ثانوية فى المسار التاريخى ، ولكن الخط العام للصعوبات والمخاطر ظل فى تصاعد [لم تشهد الأوضاع المعيشية للمواطن السوفيتى تحسناً (نسبياً) ذا شأن إلا فى وقت ما من أعقاب الحرب العالمية الثانية] . **ومع تفاقم الصعوبات وتصاعد المخاطر لم يعد إلتجاء الدولة السوفيتية للإرهاب الثورى إجراء مؤقتاً ، وإنما تحول إلى ممارسة دائمة . ومع الوقت ، تحول إرهاب الدولة إلى دولة الإرهاب... وتحولت المبررات السياسية المؤقتة لإنتهاج هذا الطريق إلى تبريرات فكرية وإيديولوجية ، لم تلبث أن أصبحت نظريات ثابتة ، ممهورة بأسماء ذات مناصب قيادية وألقاب علمية** . وتجاهل ورثة عقيدة ماركس وصاياه التى نص فيها على أن الإشتراكية والديموقراطية وجهان لا ينفصلان لسلطة العمال والكادحين ، وزعموا

أن لا ضمان لبقاء هذه السلطة إلا بمنع المعارضة . وبدأ الأمر بمنع نشاط الأحزاب المعارضة ، وحتى تلك المختلفة مع الحزب الشيوعى حول التفاصيل . ووضعوا نظريات تبرر انفراء الحزب الواحد بالسلطة ، وقالوا إن الديموقراطية تتحقق من خلال الحزب ، أى بالتبادل الحر لوجهات النظر المختلفة فى صفوفه وبين مستوياته ، من خلال القنوات التنظيمية ، وبإعمال قواعد المركزية الديموقراطية . ولكن هذه العبارات الموصوصة انتهت فى التطبيق إلى إسكات أى صوت يعارض القيادة داخل الحزب ، أو حتى يناقشها فى أبسط الأمور . ولم تلبث دائرة القيادة الحزبية أن انكمشت بالتدريج : من مؤتمر الحزب إلى لجنته المركزية، إلى مكتبه السياسى ، وأخيراً أصبحت القيادة عند منتصف الثلاثينات ، هى القائد الأوحد ، الزعيم الذى لا يخطىء - جوزيف ستالين ،

ومن خلال الأممية الشيوعية (الثالثة) سادت الأفكار والممارسات الستالينية فى اليسار الشيوعى الذى أصبح يرى أن النمط السوفيتيى للدولة هو النمط الوحيد ، والأكمل ، للدولة الإشتراكية ، وبناء ماسمى بالإشتراكية فيها هو النموذج الذى يجب أن يحتذى عندما تنتصر الثورة الإشتراكية فى بلاد أخرى .

* * *

ولكن ، عند الحديث عن « إرهاب الدولة » أو «دولة الإرهاب» يجب أن ننبه إلى أن مضمون هذه العبارة أو تلك يختلف من دولة إلى أخرى ، ومن ظرف تاريخى إلى آخر ، كما تختلف طريقة النظر إليه وتوصيفه بإختلاف المراقب الخارجى الذى يكتب عنه ، أو الكاتب الأجنبى الذى يؤرخ له .

فى غالبية البلاد ذات الحضارات الزراعية القديمة ، فى الشرق

خاصة ، تلتبس الأمور على المراقب الخارجى الذى غالباً ما لا يستطيع التمييز بين خوف الناس من « إرهاب الدولة » وخوفهم بسبب «الهيبة من الدولة » . بتعبير آخر ، يصعب على الغريب التمييز بين الإرهاب والرهبة .

الخوف من الإرهاب خوف حاد ، ذعر شديد الوطأة والإيلام ، وموتّر ...لا يستطيع البشر أن يتحملوه إلا لفترة زمنية وجيزة يعلمون ـ أو يقدرون ـ أنها مؤقتة وعابرة .

أما الرهبة فهى خوف مستقر ساكن فى النفوس ، [يختلط التمييز بينها ـ أحياناً ـ وبين الجبن] ، تكاد أن تكون جزءاً من طبيعة البشر ، حيث هى نوع من التعود على المكاره ، وظيفتها مساعدة الناس على معايشة قوى مهلولة لا قبل لهم بتحديها .. وفى البداية سكنت الرهبة نفوس الكائنات البشرية (والحيوانية عموماً) لمساعدتها ، على التوازن ومعايشة قوى الطبيعية الكونية حين تجمح وتبطش .. ثم امتدت صنوف من الرهبة فى وجدان الإنسان الإجتماعى لمساعدته على التوزان النفسى فى معايشة قوى القهر الطبقى والتسلط السلطوى حين يمتد عمرها ويطول ، وتصبح وكأنها من ثوابت الكون . وفى الدول القديمة ، فى الشرق ماقبل الصناعى خاصة ، استقرت الرهبة من الدولة فى نفوس الرعية أحقاباً مديدة . وامتزجت الرهبة من الدولة بالرهبة الدينية ـ أو الرهبة من تركيبات إيديولوجية شبه دينية . وفى مثل هذه الدول ، لا يحتاج الحكام للإرهاب الحكومى إلا قليلاً ، ويزيدون الجرعة فى لحظات الإضطرابات العنيفة القصيرة أو فترات الإنتقال المحدودة .. بينما رصيدهم الأساسى ـ لإسلاسى قياد العباد ـ هو التخويف بالرهبة ، (أو الترهيب) . ومن ثم نلاحظ أهمية البعد الدينى فى التركيبات الإيديولوجية لهذه الدول ، وأهمية الدور الذى يقوم به رجال الدين السلطويون فيها ، وبراعة الحكام فى توظيف

الترهيب الدينى لتغذية الرهبة من الدولة .

ومن الأفكار التى أصبحت متداولة فى الغرب أن الشيوعية (أو هى شيوعية الأممية الثالثة بالتحديد ، أو هى الشيوعية السوفيتية وتابعاتها ، أو هى الماركسية اللينينية) التى بدأت فى أواسط القرن التاسع عشر كمذهب علمانى حديث ومستقبلى ، وأعلت المعايير العقلانية فى الفكر والتزمت بالقيم الإنسانية فى الممارسة السياسية - هذه الشيوعية أكملت تحولها ، أثناء حكم ستالين ، إلى عقيدة شبه دينية ، أى كهنوتية . وكانت الخطيئة الأولى (والدائمة) هى إهدار الديموقراطية فى إدارة شئون الحكم والممارسة السياسية عموماً ، والإمعان فى تبرير هذه العملية بالتزييف والتلفيق الفكرى . ومع الوقت أصبح غالبية من سموا أنفسهم علماء الماركسية اللينينية عقائديين جامدين ، أى موكباً كئيباً من الكهنوت السلطوى . ولكن تم الإبقاء بين عقائديِّى هذه الشيوعية - لزوم ستر النوايا الخبيثة والممارسات المرذولة - ثم الإبقاء على عدد من متوسطى الذكاء ومحدودى الخيال ، ممن حافظوا على نوع من الإيمان شبه الدينى بأن حزبهم الشيوعى مايزال هو الحفيظ الوحيد على المعايير العقلانية والقيم الإنسانية ، وهو الوحيد القادر على قيادة المسيرة المستقبلية . وعموماً لم يبق فى ضمير هؤلاء العقائديين من العقلانية والإنسانية إلا القليل الذى تسمح به السلطة حسب الظروف . (ومهما يكن ، فلا يفوتنا أن نؤكد أن هذا القليل أكبر كثيراً مما بقى من إنسانية الغرب الإمبريالى وعقلانيته) .

وبينما تجرى هذه التحويلات السلبية ، وتستقر الأمور للدولة الستالينية، تعاظم إعتماد رجال الدولة السوفييت (والكهنوت العقائدى منهم - وأهمهم) على رصيد الرهبة القديم من الدولة ، الراسخ فى وجدان الأمم

والشعوب السوفيتية التى تشكل غالبية سكان الإتحاد السوفيتى ، والتى كانت ماتزال تسودها الروح الريفية أو القبلية ، والمناخ الحضارى ما قبل الصناعى .

وفى إعتقادنا أن هذه الفكرة سليمة تماماً . ولكن ، فى رأينا ـ أيضاً ـ أنه ترتبت عليها نتيجة طال تجاهلها ، وغلب الجهل بها ، وهى أن استقرار السلطة السوفيتية ، على مدى أكثر من نصف قرن ، اعتمد على الرهبة أكثر مما أعتمد على الإرهاب . وفى رأينا أن هذه حقيقة ربما تكون قد غابت عن غالبية المراقين والدارسين الغربيين ، الذين ـ بحكم تكوينهم الحضارى والفكرى المختلف ـ لا يتصورون إمكان غياب الديموقراطية مع تحقيق مثل هذا الإستقرار إلا بإرهاب غير محدود . (وجاءت نازية هتلر فى ألمانيا لتدفعُ كثيراً من المثقفين فى هذا الخطأ الفكرى ، وتتيح فرصة لمغالطة دعائية كاسحة ، هى المطابقة بين الإتحاد السوفيتى وألمانيا النازية ...). وأطلق الكثيرون العنان لمبالغات قدرت عدد ضحايا إرهاب الدولة السوفيتية بالملايين . وفى أيامنا هذه، التى طغى فيها الإعلام الإمبريالى طغياناً يزهو على طغيان البابوية فى العصور القديمة المظلمة ، أوصلت المزايدات المدفوعة الأجر عدد الضحايا إلى عشرات الملايين . وفى مثل هذا المناخ الذى وصل فيه الكذب والخلط والتشويش إلى منتهاه ـ يمتزج الجهل بالإغراض . وفى جو الفوضى والهمجية المستشرية (التى يسمونها نظاماً عالمياً جديداً) ، يستسهل خصوم الإشتراكية الإمعان فى التشهير الذى يلغى التفكير ، وينتهزونها فرصة لتصفية الحسابات مع كل قوى التقدم والتحرر دون تمييز ، ونشر مزيد من الأمية التاريخية والبلبلة السياسية ، وإشاعة الذعر من تحدى الرأسمالية فى صفوف الناس العاديين .. والتسليم النهائى بأنها هى النظام الأبدى .

وعلى كل حال ، فإن قضية الإشتراكية السوفيتية الطراز ، وراية الشيوعية التى رفعتها أحزاب الأممية الثالثة ـ لم ينل منها شيء مثل ما نالها بسبب غياب الديموقراطية التشويه الإيديولوجى /المذهبى اللذين أصابا التجربة السوفيتية .

كان الشيوعيون ، و الإشتراكيون عموماً منذ ماركس ، قد كشفوا عن جوهر الديموقراطية البورجوازية وقصورها .. وأثبتوا للعالم ـ بالتحليل النظرى العقلانى والنضال السياسى الإجتماعى ـ **أن الدولة التى تعد رعاياها «بالحرية والإخاء والمساواة» بينما تطلق العنان للملكية الخاصة لوسائل الإنتاج الأساسية ، وترعى استغلال الإنسان للإنسان واستعباد الأمم للأمم ، وتستعمر أوطان الآخرين ... مثل هذه الدولة يستحيل أن تفى بوعودها** ، حتى لو نصت وثائقها الدستورية على ضمان أعلى درجات الديموقراطية السياسية والحقوق المدنية ، وصولاً إلى حرية مواطنيها فى حمل السلاح (!!) ... ولن تخرج ديموقراطية مثل هذه الدولة ـ فى أحسن الإحتمالات ـ على كونها أداة فى أيدى الطبقات المالكة لحكم الطبقات المعدمة وامتهانها ، وأداة فى أيدى الأمم الغنية للهيمنة على الأمم الفقيرة ، واستنزاف مواردها ، وإهدار آدمية أبنهائها .

ومن مزايا اللحظة الراهنة ، ويجب ألا يغفل الإنسان الراشد عماً فى الشدائد من فوائد ، أنها لحظة نضج وصدق ومكاشفة ، لحظة تُتاح فيها الفرصة التاريخية لأن يحاكم فقراء العالم ومستضعفوه ومثقفوه المستنيرون (أعنى قوى التقدم) التجربة السوفيتية بنفس المعايير العقلانية والقيم الإنسانية

التى سبق أن حاكم بها الشيوعيون النظام الرأسمالى ، ومن واقع الخبرة التاريخية للنظام الذى بنوه ، وأخفقوا فى تحقيق المثل العليا للشيوعية فيه .

نعم .. فلن يكون قادراً على إجراء محاكمة عادلة للتجربة السوفيتية ، وكتابة نقد بناء لها ، واستخلاص دروس واختزان خبرة مفيدة للمجتمع الإنسانى، إلا ممثلو قوى التقدم الذين حزنوا وخاب أملهم لإخفاق مشروع اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) التى وعدت بها ثورة أكتوبر الروسية التى قادها لينين عام ١٩١٧ ، «يوتوبيا إلى كل حسب حاجته ، ومن كل حسب قدرته، » كما سبق أن حاكم أسلاف لهم تجربة المجتمعات الصناعية الليبرالية ، بعد أن خاب أملهم حين أخفق مشروع اليوتوبيا التى وعدت بها الثورة الفرنسية التى قادها مكسميليان روبسبير عام ١٧٨٩ ، «يوتوبيا الحرية والإخاء والمساواة ».

أما الأغنياء المتجبرون ، وطابور الأذكياء الأنانيين الذين يضعون مهاراتهم الشيطانية فى خدمة المال والسلطة ، فإن محاكمتهم لأى محاولة للتقدم الإجتماعى ـ خاصة بعد فشلها ـ فإنها ليست إلا من قبيل السخرية من القيم الإنسانية وتحقير المعايير العقلانية ، والتشفى فى ذوى النوايا الحسنة الذين يفترضون إمكان إقتراب الإنسان الفرد من الكمال ، وإمكان اقتراب المجتمع الإنسانى من المثل العليا للمدينة الفاضلة .

وفى كل الأحوال ، ليس للشيطان أن يدعى لنفسه حقاً فى محاكمة الناس على خطاياهم ، أو نقدهم على أخطائهم ـ وهو أول من يعرف أنه هو العامل الأساسى فى دفعهم إلى طريق الخطايا ، وإبعادهم عن سواء السبيل .

منذ مولدها ، دخلت الدولة السوفيتية فى مأزقها التاريخى الذى لم تخرج منه ـ حين جعلت من الإشتراكية والديموقراطية قضيتين منفصلتين ، وضحت بالديموقراطية بدعوى أن هذا كان ضرورياً من أجل توفير الضمانات لبناء الإشتراكية ، والدفاع عنها .

وها نحن بعد سبعين عاماً نتحقق من أن هذا الفصل كان ، وسيظل مستحيلاً ... وها هى الدولة السوفيتية ، وهى قوة دولية عظمى ، تتهاوى تحت أوزار السير فى الطريق المسدود . **فالدولة التى تعد رعاياها بالإشتراكية** (العدالة الإجتماعية ـ تكافؤ الفرص ـ الديموقراطية الإقتصادية..) بينما **تحرمهم من الحريات السياسية والحقوق المدنية والمساواة القانونية ... هذه الدولة ليست ، ولن تكون أبداً ، قادرة على الوفاء بوعودها ، حتى لو كانت الثورة التى أقامت هذه الدولة قد قضت قضاءً تاماً على الرأسماليين والإقطاعيين ، وأجلست على كراسى السلطة أفقر المعدمين .**

ذلك أن التمايز بين البشر من طبائع الأمور ، طالما أن الله يخلق الناس مختلفين فى الصفات المورثة ، والموهبة ، والقدرة على التعلم ، والإستفادة من الخبرة ... هذا التمايز الطبيعى ، ومع افتراض تكافؤ الفرص ، هو الذى يجعل من القلة قادة ، ومن الكثرة جماهيراً .

كذلك خلق الله الناس شعوباً وقبائل ، فتمايزوا فى العرق واللون والتكوين النفسى ، وتكلموا بأكثر من ألف لغة ولهجة ، وابتدعوا أكثر من ألف أسلوب فنى وثقافى للتعبير عن أفراحهم وأحزانهم ، وتطلعاتهم ومخاوفهم، وآمالهم وآلامهم ...

هذه كلها ، وكثير غيرها ، أشكال للتمايز الطبيعى بين البشر . **ولكى**

لا يتحول التمايز الطبيعى إلى إمتيار طبقى أو عنصرى ظالم - كأن يرث جهول ثروة يبددها ، أو يستولى مستبد على سلطة يفسدها ، أو يستبيح شخص جهد آخر لأنه أعزل ، أو تستعبد أمةٌ أمةً أخرى لأن بشرتها سوداء ، أو يهدر قوم دماء آخرين لأن طريقتهم فى عبادة الخالق مختلفة ...

لكى لا يحدث هذا ، وأكثر من هذا مما لا تكف عن ابتداعه الأنانية الفردية وشهوة التسلط العنصرى والإستعلاء الطبقى وبقايا روح الهمجية الأولى **... اكتشف العقل الجمعى فى أثينا القديمة الأفكار الأولية للديموقراطية** منذ أكثر من ألفين من السنين ، وطورها المفكرون السياسيون والقادة الإنسانيون بعد الطفرة التى شهدتها أوروبا فى عصر النهضة . جاء فلاسفة التنوير بالإسهام الليبرالى ، ومن بعدهم طورها وأغناها ماركس وتلامذته بالإسهام الإشتراكى .**وجوهر هذا التطور يتلخص فى التوسيع المطرد لدائرة المواطنين الذين يساهمون فى إتخاذ القرارات السياسية التى تتعلق بالمسار العام للدولة ، كما يساهمون فى الإدارة اليومية المباشرة لجميع الشئون الحياتية والمعيشية .. كل هذا ، مع إتاحة الفرص ، وعدم إغلاق السبل أمام قوى التغيير التى لا تكف عن الحركة فى جميع نواحى الحياة ، فليس فى الكون شىء إلا وهو فى تغير مستمر .**

ولكن الرواد الأوائل للديموقراطية فى أثينا القديمة ، والديموقراطية فى لغتهم تعنى « حكم الشعب » ، كانوا يرون أن العبيد ليسوا من الشعب ، بل كانوا يعتبرون العبيد أشياء ومتاعاً وليسوا بشراً ... هذا ، بينما العبيد هم غالبية السكان والقوة المنتجة لاحتياجات المجتمع المادية . كذلك كان الديموقراطيون الأثينيون لا يقرون للمرأة ـ حتى وهى حرة ـ بأية حقوق سياسية

. وعليه ، فإن «الشعب» فى الديموقراطية الأثينية لم يكن يحتوى إلا على الذكور البالغين الأحرار ، الذين لا تزيد نسبتهم على ٥٪ من مجموع السكان، وكانت ساحة المدينة تكفى لعقد جمعية عمومية تضم كل أفراد هذا الشعب (!!) ، وتتصدر الإجتماع حفنة ضئيلة من كبار ملاك العبيد ، التى تملك الثورة والنفوذ ، والقدرة على التعبير والإقناع . وغنى عن القول أن القرارات كانت تصدر لصالحهم .

وعندما جاء دعاة الديموقراطية المحدثون ، وكان النظام العبودى قد اندثر منذ أكثر من ألف عام ، رأوا المفارقة الصارخة بين شعار « حكم الشعب » وواقع تطبيقه فى المجتمع الأثينى القديم . وحين طبق ماركس منهجه فى المادية التاريخية على ذلك الواقع قال إن الدولة الأثينية ، سواء طبقت الديموقراطية أو لم تطبقها ـ لم تكن فى جوهرها إلا دكتاتورية طبقية ، تمارس فيها الأقلية دكتاتوريتها لإخضاع واستغلال الأغلبية .

وحين طبق ماركس وتلاميذه نفس المنهج على المجتمع الرأسمالى الحديث قالوا إن الدولة فى الغرب الصناعى المتقدم ، سواء أخذت بهذا الشكل من أشكال الديمقراطية البرلمانية أو ذاك ، فإنها ليست فى جوهرها إلاّ دكتاتورية طبقية ، تمارس فيها الأقلية الثرية من كبار الرأسماليين دكتاتوريتها لإخضاع العمال واستغلالهم . . . وذهبوا إلى أن إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج (وجعلها ملكية للمجتمع) كفيل بالقضاء على هذ النوع الحديث من الدكتاتورية الطبقية ، وإقامة دكتاتورية البرولتياريا (الطبقة العاملة) على أنقاضها . وقالوا - فيما قالوا - إن دكتاتورية البروليتاريا تلك - هى فى جوهرها أرقى شكل من أشكال الديموقراطية في التاريخ ، حيث هى الأولى التى تمارس فيها الأغلبية دكتاتوريتها ضد الأقلية ، (وليس العكس ، كما كان

الحال من قبل) .

ولكن ، إذْ دخلت الدولة السوفيتية فى مأزقها التاريخى منذ تأسيسها، حين فصلت كما سبق أن ألْمَحْنا - بين قضية الديموقراطية وبناء الاشتراكية . . . فإن هذه الدولة لم تلبث أن تحولت إلى شكل آخر من أشكال دكتاتورية الأقلية - ذلك هو " الاستاتوقراطية " Stat ocracy ، أو هو « دكتاتورية رجال الدولة » . . . كما أنتهت الشيوعية السوفيتية (كعقيدة) إلى كونها التبرير الإيديولوجى لاستبداد هذه الطبقة واستئثارها بالسلطة ، واستحوازها على الجانب الأكبر من الفائض الاستهلاكى .

وكما سبق أن كان ملاك العبيد والعبيد هما قطبا الصراع الاجتماعي فى النظام العبودى فى المدن اليونانية القديمة . . .

والرأسماليون والعمال هما قطبا الصراع الاجتماعي فى النظام الرأسمالى، فى الدول الغربية بعد الثورة الصناعية . . .

فإن الاستاتوقراطية من جانب ، ومجموع العاملين والمثقفين المستنيرين من جانب آخر ، هما قطبا الصراع الاجتماعى فى المجتمع السوفيتى ، وفى الدول التى أخذت بالنموذج السوفيتي فى بناء ذلك النظام الذى لم يأخذ من الاشتراكية بقدر ما أهدر من مثلها العليا وقيمها .

والديمقوقراطية هى محور الصراع الدائر الآن ، والذى يصل فى هذه الايام إلى ذروته الحرجة .

فإما تتغلب القوى الستاتوقراطية المحافظة ، ولن يكون انتصارها نهائياً إلاّ إذا انتكست بالتجربة السوفيتية إلى مواقع رأسمالية فاضحة ، وأصبحت جزءاً من النظام العالمي للرأسمالية ، وأخذت بشكل يتواءم وظروفها من أشكال الديموقراطية (أو الدكتاتورية) البورجوازية . .

أو تنتصر قوى الإصلاحين الثوريين ، الديموقراطيين الاشتراكيين ، من العاملين الكادحين والمثقفين المستنيرين . . . الذين لن يكون انتصارهم تاماً إلاّ إذا انتقلوا بالمجتمع السوفيتي من مواقع تلك الاشتراكية المبتسرة الشائهة وإيديولوجيتها التبريرية إلى اشتراكية إنسانية حقيقية . . .

وهاهى الطلائع السوفيتية التقدمية المناضلة (التي لا يصلنا من أخبارها إلاّ النزر اليسير بسبب الحصار الإعلامي الأمريكى الطاغى) - هاهي تستكشف طريق مستقبل الاشتراكية الذى لم يسبقها فيه أحد ، من خلال المعارك السياسية الاجتماعية المحتدمة والمتصاعدة على أراضى جميع الجمهوريات السوفيتية - ضد قوى الستاتوقراطية المتداعية بجناحيها : الجامد الخائب الذى دبرّ انقلاب ١٩ أغسطس الفاشل ، وأعطى كل المبررات لاندفاع الجناح المغامر المتبجح (يلسين وأشياعه) ، الذى يستدعى قوى الإمبريالية العالمية للتدخل فى الصراع الدائر ، دون أى شعور بالخجل ، أو أحساس بالمسئولية .

خـــاتمـــة

اعتبر بعض المؤرخين - تجاوزاً - أن القرن التاسع عشر بدأ مبكراً ، بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، وانتهى متأخراً بقيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ . وربما كان المعنى المتضمن فى هذا التعبير هو أن القرن التاسع عشر كان قرن صعود (ثم انهيار) الآمال التي عقدتها قوى التقدم فى القرن الماضى على إمكان تحقيق المجتمع الليبرالي المثالى مجتمع "الحرية والإخاء والمساواة" ، ذلك المجتمع الذى كانت الثورة الفرنسية هى أقوى الثورات الليبرالية تعبيراً عن إرادة تحقيقة ، وأبعدها أثراً فى التاريخ الأوروبى . . . ثم كانت الحرب العالمية الأولى هي الفصل الختامي فى مسلسل الانقلابات والحروب التى خيبت هذه الآمال.

كذلك ، نستطيع أن نقول إن القرن العشرين بدأ متأخراً بقيام الثورة البلشفية فى روسيا عام ١٩١٧ ، وانتهى مبكراً بسقوط الشيوعية السوفيتية و الانهيار الذى أصاب الدولة السوفيتية عام ١٩٩١ . ذلك أن القرن العشرين هو قرن صعود (ثم انهيار) الآمال التي عقدتها قوى التقدم فى العالم على إمكان تحقيق المجتمع الذى كانت الثورة الروسية هى أقوى الثورات تعبيراً عن إرادة تحقيقة ، وأبعدها أثراً على الصعيد العالمي . . . ثم ها هو العقد الأخير من هذا القرن يشهد خيبة هذه الآمال .

* * *

ولكن ، مراعاة لجانب هام من جوانب الحقيقة التاريخية - نقول إن الآمال وإن كانت قد خابت فى إمكان تحقيق المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) الليبرالية ،

من خلال الأنظمة التي تمخضت عنها الثورات البورجوازية الليبرالية فى الغرب ، فإن هذا لا يعنى أن الليبرالية قد أنتهت ، وإنما بقى من الليبرالية الكثير . بقيت ، من بين أشياء أخرى ، أشكال من التطبيقات السياسية العملية ، فيما يتعلق بإقامة مؤسسات حكم على أسس من الديموقراطية التمثيلية Representative Democracy . صحيح أن هذه ديموقراطية من نوع دون طموح رواد الليبرالية ومثالييها ، وصحيح أن القوي المحافظة فى الغرب نجحت فى إفراغها من كثير من جوهرها الإنسانى وفى إقصائها عن النهج العقلانىّ ، وجعلتها أداة فى خدمة الأقلية المالكة صاحبة الامتيازات المادية والنفوذ السلطوىّ الغالب . . . كل هذا صحيح ، ولكن لا جدال فى أنها طفرة نوعية هائلة بالقياس إلى ماكانت عليه نظم الحكم الاستبدادية الكهنوتية فى مجتمعات القرون السابقة ، الإقطاعية وشبة الإقطاعية . بل إن هذه الديموقراطية المبتسرة ماتزال قادرة على الصمود فى وجه التحدى الذى جاءت به الأنظمة التي تمخضت عنها الثورات الاشتراكية فى القرن العشرين ، بل وإنزال الهزائم المروعة بها !!

وبقى من الليبرالية أيضاً حلمها المثالىّ الضائع ، حلم روّاد الليبرالية ومثاليوها وقممها التاريخية الشامخة ، من أمثال فولتير وروبسبير . نعم ، بقيت . **فالأحلام الكبيرة للإنسانية ، المعبرة عن إرادة الخير والتقدم ، لا تضيع إلاّ ظاهرياً . . . ولكنها تظل حيّة فى ضمائر الطلائع ، تجدد الآمال وتلهم الأجيال لمواصلة النضال من أجل بعث الجوهر الحق للرسالات الكبرى .**

كذلك الحال بالنسبة للاشتراكية ، وتفريعاتها الشيوعية خاصة . .

فإن كانت الآمال قد خابت فى إمكان تحقيق اليوتوبيا الاشتراكية من

خلال أنظمة الحكم التى تمخضت عنها الثورات الشيوعية فى " الشرق " ، فلا يعنى هذا أن الاشتراكية قد انتهت .

بقى أن ذلك النوع من الاشتراكية المبتسرة التى أقامها الاتحاد السوفيتي والدول التى سارت على نهجه نجحت فى إحداث طفرة نوعية هائلة فى عدد من البلاد التى كانت شديدة الفقر والتخلف ، والتى تضم حوالى ثلث سكان هذا الكوكب ، وتمكنت من أن تقيم فيها بنية أساسية ، اقتصادية اجتماعية ، وثقافات وطنية تقدمية لمجتمعات حديثة ، صمدت فى وجه طغيان الرأسمالية العالمية والحد من شرورها عقوداً عديدة . وأياً كان حجم المحنة التى تعانى منها هذه الدول فى اللحظات التاريخية الراهنة ، فإن الرصيد الإيجابىّ ، البشرىّ والمادىّ ، الذى خلقته هذه الاشتراكية ذاتها سيمكّن هذه الدول من تجاوز المحنة ، والعودة إلى مكانة فى المجتمع الدولىّ ما كانت لتحتله لولا أنها عرفت الاشتراكية . بل إننا على يقين من أن المثل العليا للاشتراكية الأصيلة هى التي ماتزال تحتل المكان الأول فى وجدان طلائعها الخيّرة ، وأنها هي مستقبلها . (تماما كما كانت المثل العليا لليبرالية تحتل المكان الأول فى وجدان طلائع الشعب الفرنسىّ فى لحظات محنته غداة مؤتمر فيينا وعودة النظام الملكىّ وأسرة البوربون إلى عرش فرنسا عام ١٨١٥ .)

ويقى من الإشتراكية ، بتفريعاتها العديدة - خاصة الشيوعية ، الفضل فى كثير مما يتمتع به العمال وسائر المستغلين والمستضفين من تحسّن مّطرد فى أحوالهم المعيشية ومكانتهم الاجتماعية والسياسية فى قلب البلاد الرأسمالية ذاتها ، وفى كثير من بلاد العالم الثالث . فليس بخافٍ أن غالبية ماتحقق فى هذا الصدد تمّ بفضل نضال المستغلين والمستضعفين تحت قيادات كان الشيوعيون والاشتراكيون يشكلون غالبيتها ، يقفون فى الصفوف الأمامية ،

ويبادرون ، ويقدمون أكثر الأفكار جرأة واستنارة ، ولا يبخلون بأغلى التضحيات . . .

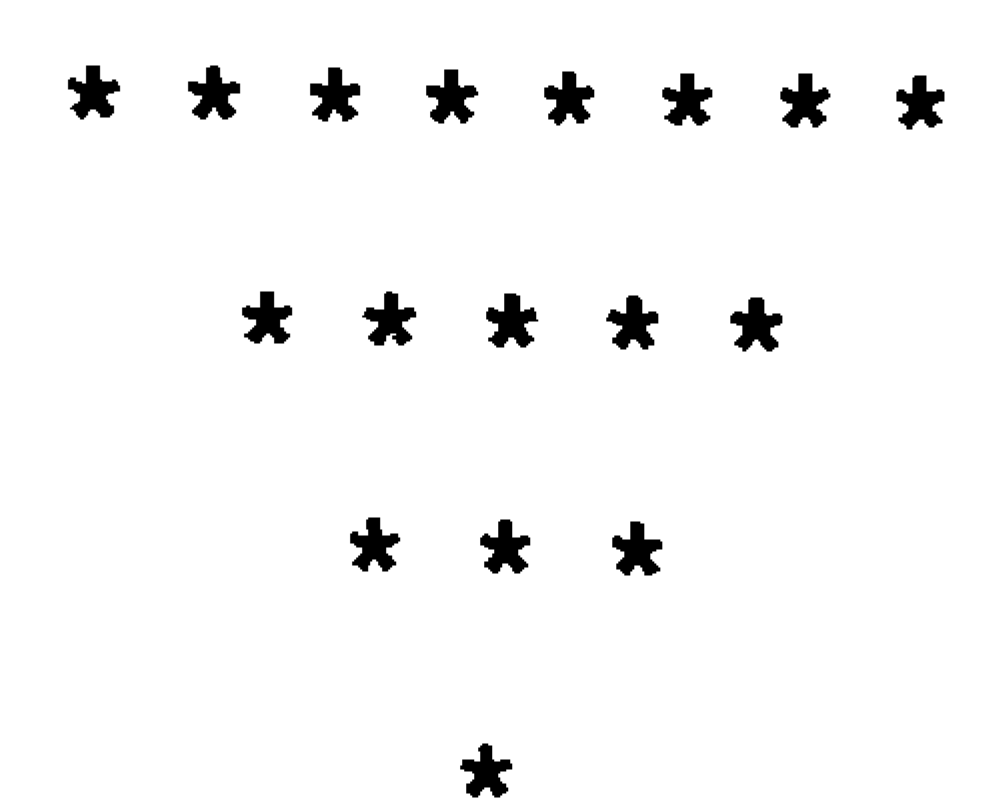
(وعموماً ، فإن رأسمالية القرن العشرين ، والطبقات صاحبة الامتيازات الأخرى ، ماكانت لتقبل بتقديم ماقدمت من تنازلات وإصلاحات إرضاءً لرعاياها لولا أن الخوف من الثورة الاشتراكية كان - ومايزال - يتملكها)

وبقى من الاشتراكية أيضا حلمها المفقود ، حلم روّد الاشتراكية ومثالييها وقممها التاريخية ، من كارل ماركس إلى شى جيفارا . . حلم أن يصبح المجتمع (بمعنى الأغلبية من المنتجين والمهنيين والفنيين الإنسانيين والمثقفين المستنيرين - وليس الأقلية المستغلة صاحبة الامتيازات غير المبررة والسلطات الطاغية) أن يصبح هذا المجتمع هو المالك الحقيقى للموارد وأدوات الإنتاج الأساسية ، يديرها لصالح المجموع وللوفاء بالاحتياجات الحقيقية والارتقاء الحضارى ، وفى توافق مع الموارد والبيئة ، وبرؤية بعيدة نحو مستقبل البشرية ، عريضة تشمل إخواننا فى الإنسانية على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم . . . وأن تصبح قيادة المجتمع تجسيداً لمعاني المحبة والإخاء ، ومثالاً للغيريّة والتضحية ، بمعنى أن يكون القادة - بتعبير جيفارا - هم أول من يتقدم للفداء وآخر من يقف فى طابور الخبز (وقت الأزمات خاصة) ، وهم أيضا القادرون - مثلما كان جيفارا الوسيم المُشرق - قادرون على تفجير طاقات الفرح الصافى ، والإقبال على كل مافى الحياة الطيبة من متعة وبهجة .

وإذا كان لنا أن نتعلم شيئا من دروس هذا القرن العشرين، فهو ضرورة أن تستعيد البشرية الأمل فى تحقيق

حلميها الكبيرين الضائعين معاً ، فى رباط لاينفصم - الحلم الليبرالىّ الأصيل والحلم الاشتراكي الأصيل ، فلا اشتراكية بغير ديموقراطية وحرية بأوسع معانيها ، كما أن لا حرية بغير عدالة اجتماعية ، أى بغير اشتراكية فى أكثر صورها اكتمالاً.

٢٧ نوفمبر ١٩٩١



قبل الطبع

تكْتب هذه السطور يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٩١ ، بعد يومٍ من تقديم ميخائيل جوربا تشوف استقالته من رئاسة دولة " اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية " ، بعد أن كان البناء الاتحادى لهذه الدولة قد أنتهى قبل ذلك ببضعة أيام ، وتفكك الاتحاد السوفييتى إلى إحدى عشرة دولة " مستقلة " (؟) ، تبحث عن صيغة جديدة للارتباط فيما بينها . وقد سلّم جوربا تشوف استقالته إلى السيد الرئيس بوريس يلتسين ، الذى يحاول أن يورّث الدولة الروسية الألقاب الكبرى التى كان يحملها الاتحاد السوفييتى ، بالأضافة إلى ترسانته النووية ، كما يحاول أن تكون روسيا القرن الحادي والعشرين طبعة حديثة " متأمركة " لروسيا قياصرة ماقبل القرن العشرين !!

هكذا جاء يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٩١ لتغطى أهميته على كل ماسبقه من معالم انهيار الطبقة الحاكمة دولتها فى الاتحاد السوفييتى وبلاد أوروبا الشرقية (تلك المعالم التى نذكر منها : إعدام الرئيس الرومانى السابق نيكولاى شاوشيسكو ، وتحطيم سور برلين ، وضمّ ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية ، والانقلاب الفاشل فى موسكو ، واندلاع الحرب الأهلية فى يوغوسلافيا ، وانفصال جمهوريات البلطيق ...) ... تلك المعالم التاريخية ، وغيرها ، التى تتابعت بسرعة مذهلة خلال الأعوام الثلاثة السابقة ...

ولا جدال فى أن يوم الإعلان عن انحلال الاتحاد السوفيتى هو - حتى الآن - العلامة التاريخية الكبرى التى لاتناظرها علامة أخرى فى هذا القرن سوى قيام الثورة البلشفية فى روسيا قبل ذلك بحوالى ثلاثة أرباع القرن .

وفى تقديرنا أن أهمية الدور الذى لعبة لنين ، فى تغيير مجرى التاريخ

العالمى فى أوائل هذا القرن ، لا يضايه إلاَّ الدور الذى لعبه جوربا تشوف قرب نهايته .

وفى تقديرنا أيضاً أن مسيرة كل من القائدين الروسيين متكاملتان وليستا متناقضتين ، كما يتوهم (أو يحاول أن يوهمنا) طابور طويل من المشوّشين الإيديولوجيين - من اليمين البورجوازى واليسار العقائدى الجامد - كل على طريقته .

وعلى كل حال ، فإن جميع احتمالات التغيير مفتوحة أمام عالم الغد القريب .

* * *

ومرة أخرى نذكّر القارىء بأن فصول هذا الكتاب (أو هى مقالاته) كُتبت فى غمرة الأحداث التاريخية الصاخبة للعام المنصرم .. وهى إسهام فى محاولات خلق فكرٍ سياسىٍ مصرى (وعربىّ ؟) بالأصالة عن أصحابه ، من حيث هى متابعة حيّة للأحداث باعتبارها ليست مجرد ماجريات ، ولكن باعتبارها تاريخاً مُعاشاً ، ومن حيث أن الكاتب له رأى وموقف ، دون ادعاء لأية موضوعية شكلية ، من النوع الذى يتذرع به محترفو الكتابة والسياسة ، ووجهاء مراكز " البحث " (... " البحث " عن إكراميات أصحاب المال والسلطة والنفوذ) ... ودون ارتداء مسوح الكهانة الأكاديمية ، التى لايجرؤ سدنتها على المبادرة باكتشاف فكرة أو المغامرة بإبداء رأى إلاَّ بالنقل عن " المراجع المعتمدة " التى تجود بها علينا العبقريات الأوروبية والأمريكية ، أو بالتمحك فى النصوص التى خلّفها مشاهير الماضى وأصحاب الحق فى الحجر على حركة التاريخ .

* * *

وفيما يتعلق بالموضوع الأساسىّ لهذا الكتاب ، نضيف كلمة أخيرة :

لقد كانت ثورة ١٩١٩ هى كُبرى محاولات الأمة المصرية (وأعيانها خاصة) أن تثور على واقعها ، وتنتقل بالبلاد من التبعية إلى الاستقلال ، ومن حياة القرون الوسطى إلى الحياة العصرية ... وذلك استرشاداً بالإطار المرجعىّ الليبرالى ، الغرب أوروبى ...

ثم كانت ثورة ١٩٥٢ ، مع التأييد الذى جاءها من غالبية اليسار الماركسىّ داخلياً والاتحاد السوفييتى عالمياً ، كانت هى كُبرى محاولات الأمة المصرية ، (وطبقتها المتوسطة خاصة) لإكمال أهداف ثورة ١٩١٩ مضافاً إليها بعدٌ اجتماعى يتعلق بتحقيق نوع من العدالة فى توزيع الثروات والدخول ... وذلك استرشاداً بالإطار المرجعىّ الاشتراكى ، ذى الملامح السوفييتية خاصة .

... وتكاد غالبية الطلائع السياسية المصرية اليوم أن تجُمع على أن ثورة ١٩١٩ لم تنجح تماماً ، كما أنها لم تفشل تماماً ... وإنما بقيت خبرات قيمّة ، وبقى تراث ثقافى حضارى طيب لا مجال لإنكاره ... وكذلك بالنسبة لثورة ١٩٥٢ ، التى لم تنجح تماماً كما لم تفشل تماماً ، وخلفت تراثاً وخبرات لا مجال لإنكارها .

والآن ، تتبيّن الطلائع الأكثر استنارة أن البورجوازية الأوروبية والأمريكية قد إبتذلت الممارسات الليبرالية وحولتها إلى طقوس وشكليات ، ولعبت بها كأداة لخدمة أهدافها فى استغلال الإنسان للإنسان واستعباد أمم لأمم، وتخلت عن المثل العليا لليبرالية ، (إلى درجة أن صفة " ليبرالى " أصبحت - فى " أيامنا " هذه فى أمريكا - تهمة لا تقل عن تهمة الشيوعية فى الخمسينات) ... كذلك يتبيّن الجميع كيف ابتذلت الطبقة الحاكمة السوفييتية الممارسة الاشتراكية / الشيوعية ، إلى درجة أنها نحّت لافتة

الاشتراكية من إسم الدولة التى أسستها الثورة البلشفية ، ويندفع بعضهم اندفاعات " فاشية جديدة " ، تنادى بتحريم نشاط الشيوعيين ، وإطلاق العنان لممارسات عنصرية واستبدادية جديدة .

الآن ، أخشى أن يكون ردّ فعل طلائعنا السياسية هو إلقاء مسئولية كل ما أصاب ثورتينا (١٩١٩ ، ١٩٥٢) من فشل على عاتق الغرب الرأسمالى/ الإمبريالى والشرق الاشتراكى/الشيوعى ، ثم تنقسم الطلائع بعد ذلك إلى تضخيم صورة قياداتنا الوطنية ومحاولة بعث الحياة فى تجاربها ومحاولة تكرارها (سعد زغلول وتلاميذه من جانب البعض ، وجمال عبد الناصر وورثته من جانب البعض الآخر) ... باعتبار أن كل ما أصابنا من توفيق كان بفضلهم...

أو - أن يتجه البعض الآخر إلى نبذ كل هذا ، والعودة إلى ماقبل التاريخ الحديث ، ومحاولة تقليد تجارب عصور خلت ، مما يضعنا تماماً خارج مايجرى فى العالم من أحداث ، ويضعنا على الطريق المؤكد لتدمير أنفسنا .

إنما المطلوب اليوم أن تسعى الطلائع الفكرية السياسية إلى مزيد من الاندماج فى التيار الرئيسى للأحداث العالمية ، وأن تجتهد لتفهم التاريخ الإيديولوجى للعالم الحديث ، وتشترك مع الطلائع المستقبلية فى كل العالم ، بحثاً عن صيغ إيديولوجية لعالم جديد ، تُحسن الاستفادة من المنابع الأصيلة : الدينية والقومية والليبرالية والاشتراكية ، فى تركيبة متوازنة ومرنة وقابلة للتطوير والتجدّد ، قادرة على أن تحتضن الإيديولوجيات المحلية ، القومية والوطنية لكل الأمم والشعوب التى أمامها فرصة تاريخية لأن تولد ميلاداً جديداً ... وعلينا دائماً ألاّ ننتظر أن يأتينا التجديد أو الخلاص من خارج الزمان والمكان .....   والله ولى التوفيق ،

فهـــرس

رقم الإيداع : ٩٧٧٣ / ١٩٩١

I . S. B. N 977 - 00253 9 - 9

دار الحريرى للطباعة

AL-HARIRY
PRESS

تليفون: ٣١٨١٢٨٥

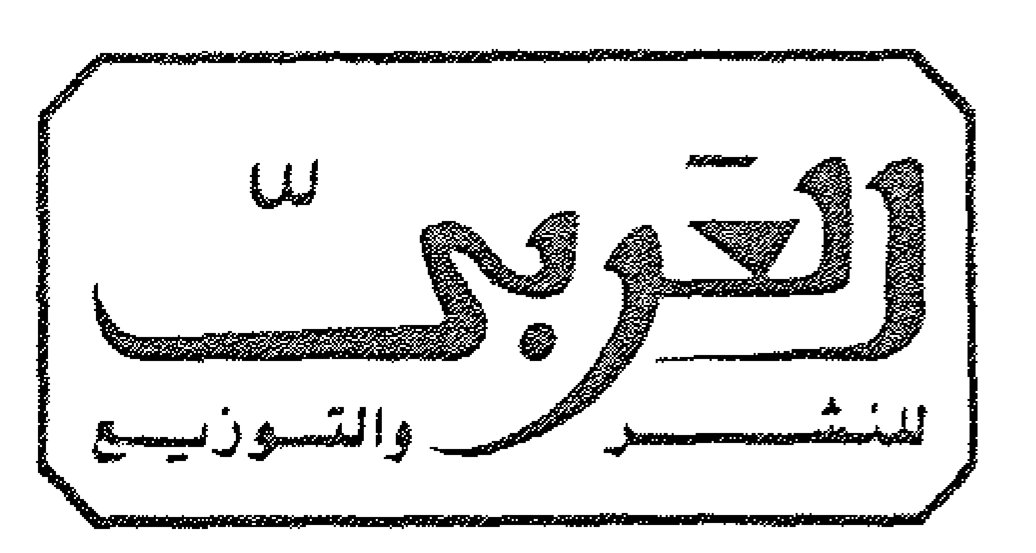
TEL. 3181285

•• بعد أن سقطت الشيوعية السوفيتية

•• ومن مزايا اللحظة التاريخية الراهنة أنها لحظة نضج وصدق ومكاشفة .

•• لحظة تتاح فيها الفرصة لأن يُحاكِم فقراء العالم ومثقفوه المستنيرون ، التجربة السوفيتية بنفس المعايير العقلانية والقيم الأخلاقية والمبادىء الإنسانية التى حاكم بها رواد الإشتراكية العلمية النظام الرأسمالى ، ومن واقع الخبرة التاريخية للنظام الذى بناه الشيوعيون السوفييت ، وأخفقوا فى تحقيق المثل العليا للشيوعية فيه .

•• نعم فلن يكون قادراً على إجراء محاكمة عادلة للتجربة السوفيتية ، واستخلاص دروس مفيدة للمجتمع الإنسانى إلا ممثلو قوى التقدم الذين حزنوا وخابت آمالهم لإخفاق مشروع المدينة الفاضلة التى وعدت بها ثورة أكتوبر .



٦٠ شارع القصر العينى أمام روزاليوسف
(١١٤٥١) القاهرة
ت : ٣٥٥٤٥٢٩ فاكس : ٣٥٤٧٥٦٦